جان ويليم فان بروجين

سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة

مكتبة

ترجمة: منير عليمي

صفحة



سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة



الكتاب

سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة

المؤلف

جان ويليم فان بروجين

الطبعة الأولى: 2021

الترقيم الدولي:

978-603-91594-3-8

رقم الإيداع:

1442/7939

E-mail: admin@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696



The Psychology Of Conspiracy Theories

Jan-Willem van Prooijen



t.me/soramnqraa

سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة

تأليف

جان ويليم فان بروجين

ترجمة

منير عليمي



الفهرس

تمهيد 7

سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة 11

متى يؤمنُ البشر بنظريّات المؤامرة 33

بنية المعتقد 52

الجذور الاجتماعيّة لنظريّات المؤامرة 70

نظريّات المؤامرة والإيديولوجيا 88

شرح نظريّات المؤامرة والتّقليلُ من سطوتها 108

تمهيد

مثّلت الحملة الرّئاسيّة، لدونالد ترامب، سنة 2016، مجالا خصبًا، لظاهرة بعينها، فقد بلغت النّظريّات التّآمريّة أَوْجَهَا، وأجْلَت عن نفسها في أشكال متعدّدة، مسحت أغلب السّياقات، وذلك من قبيل أنّ التّغيّرات المناخيّة لا تعدو أن تكون خدعةً ألّفها الصّينيّون وصدّقها العالم، وأنّ مصانع الأدوية تواري أدلّةً قاطعة على الصّلة بين مرض التّوحّد وما تنتجه من لقاحات. وفي باب السّياسة، يشير أصحاب هذه النّظريّات إلى وجودِ مؤامرة كبرى للتّستر على حقيقة أنّ باراك أوباما قد وُلِد في كينيا. إنّ الإجماع حاصل بين النّخبة، من علماء وصحفيّين وصنّاع سياسات، حول سذاجة تلك النّظريّات وسطحيّتها، وحول مجانبتها للواقع ولمنطق الأشياء مجانبةً مطلقة، وهو أمرٌ لا يختلف فيه اثنان، إنّها في غاية السّخافة، تفتقر في الغالب الأعمّ إلى ما يسندها وإلى الأدلّة المفحمة. غير أنّها تجد في ذلك رواجًا بين النّاس. فهُم على اختلاف طبقاتهم، الاجتماعيّة والمعرفيّة، يعتقدون في صحّتها، ويؤمنون بوجاهتها، وتنتقل بينهم انتقال النّار في الهشيم، يتداولونها، ويضيفون إليها، فأيّ سرٍّ يكمن وراء هذه المفارقة؟

تكتسب تلك النّظريّات قدرتها العجيبة على توجيه الرّأي العامّ وحشد النّاخبين والتّأثير في خياراتهم، ولا شكّ أنّها قد أسهمت بشكلٍ أو بآخر في فوز دونالد ترامب بالانتخابات الرّئاسيّة ليصبح بذلكَ الرّئيس الخامس والأربعين للولايات المتّحدة الأمريكيّة. وهذا يحتّم علينا التّعامل مع نظريّات المؤامرة بكثير من الجدّيّة، وإيلاءها ما تستحقّ من العناية، بالعكوف عليها، ودراستها، بعيدا عن منطق

الرّفض واللّامبالاة، الّذي يعتبرها أمرا عرضيّا وشكلا من أشكال التّسلية والتّرفيه أو مظهرًا من مظاهر المرض العقليّ. فللنّاظر أن يلمح بيُسرٍ استشراء هذه النّظريّات وشيوعَها بين العامّة، بما ملّكها الأدوات الّتي تتحدّد عبرها الخيارات الحقيقيّة والمؤثّرة في الحياة، وهي أدوات تسهم أكثر من غيرها في تشكيل الوعي الجمعيّ، ومن ذلك رسم ملامح الشّخصيّة السّياسيّة التي سيصوّتُ لها الشّعب، وما إذا كان سيتمُّ تطعيم الأطفال أم لا، وما إذا كان يجب بذل جهد لتقليل البصمة الكربونيّة للفرد، وما إذا كان يجب استخدام موانع الحمل، وما إذا كان يجب شنّ عدوان على أطرافٍ خارجيّة معيّنة. إنّ تحوّل نظريّات المؤامرة إلى ظاهرة مجتمعيّة واسعة الانتشار، وما لها من تأثير لا ينكر، ومن سلطة على العقول، يقضي اليوم بضرورة العكوف على دراستها، ومقاربتها من أنحاء متعدّدة، ويحفّز العلوم الاجتماعيّة أكثر من غيرها إلى أن تأخذها على محمل الجدّ باعتبارها موضوعًا راهنًا يستدعي البحث والتّفكيك.

من الّذي يؤمن بنظريّات المؤامرة، ويخضع لسلطانها ويفتتن بها، من بين المواطنين، وفي المقابل، من الّذي يعترض على وجودها، ويكفر بمنطقها؟ تحت أيّ ظروف يكون الناس عرضة بشكل مخصوص لنظريّات المؤامرة؟ ما عواقب الاعتقاد فيها؟ وما الذي يمكن أن يفعله صانعو السياسة للتّقليل من سطوة ذلك الاعتقاد؟

يدخل هذا السّيل من الأسئلة صلب علم النّفس، وربّما تجاوزته إلى غير ذلك من العلوم، ومن هذا المنطلق فإنّ هذا الكتاب، يعدّ محاولة لتقديم نظرة عامّة، وموجزة، ميسّرة وحديثة حولَ سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة. وتتمثّلُ الأطروحة الرّئيسيّة لهذا الكتاب في أنّ تسليم النّاس بهذه النّظريّات والاعتقاد في صحّتها عائدٌ بالأساس إلى أسباب سيكولوجيّة عميقةٍ، خلافا للآراء الّتي يعزو أصحابها مثل تلك النّظريّات إلى علم الأمراض، فيميلون إلى تفسيرها على ضوء ما يمثّله من معطيات. ويجدر بنا في هذا السّياق تأكيد أنّ نظريّات المؤامرة تنشأ من العمليّات

المعرفيّة نفسها، تلك الّتي تعتبر مسؤولة عن إنتاج أنواع أخرى من الاعتقادات، من قبيل «العصر الجديد» و«الرّوحانيّة»، وتشترك كلّها في منح الفرد ضربًا من الأمان داخل الجماعة الّتي ينتمي إليها، وتقيه كلَّ ما يستهدفه من عناصر خارجيّة، متوهّمة أو محتملة، وتتّخذ لها عادة قاعًا إيديولوجيّا يضمن بقاءها وتماسكها.

يمكننا القول إنّ نظريّات المؤامرة ليست في محصّل أمرها إلّا ردّ فعل طبيعيّ، ذا منحى دفاعيّ، لما يعتمل في الذّات من مشاعر الخوف وعدم اليقين، ومن تذمّرٍ وامتعاضٍ إزاء ما يبدر عن الآخرين من مواقف صادمة وغير متوقّعة بشأن ما يحدث.

وجب أن أثني على ما وجدته من سندٍ لإنجاز هذا الكتاب، من لدن أصدقاء أجلّهم، تضيق المساحة لإيفائهم ما يستحقّون من الشّكر، وأخصّ بالذّكر، كيري قريفيثز-Ceri Griffiths في روليدج، على مشاركتي هذا المشروع، ويمتدّ شكري إلى إليزابيث رانكين-Elizabeth Rankin، لما وجدته من لدنها من دعم ومساعدة، ولا يفوتني أن أعبّر عن امتناني العميق لمايكل سترانج- Michael Strang، مؤسّس سلسلة السّيكولوجيا التي استرعت انتباهي، وأغرتني بأن أسهم في مباحثها بهذا الكتاب.

من الضّروريّ التّنويه بما تخلّق عن التّفاعل المعرفيّ من نتائج هي من صميم ما نشأ بيني وبين صفوة من العلماء والباحثين في علم نفس نظريّات المؤامرة من مناقشات جادّةٍ، فأنا مدين لهم بما يتضمّنه الكتاب من أفكار. أودُّ أن أذكر بشكل خاصّ **بول فان لانج**-Paul vanLange، **وأندريه كروويل**-AndréKrouwel، **وكارين دوغلاس**-Karen Douglas، **ونيلز جوستمان**-Nils Jostmann،**ورينوت دي فريس**-Reinout de Vries، **ومارك فان فوغت**-Mark van**Vugt**، **وروبي ساتون**-Robbie Sutton ،**ورولاند إمهوف**-**Roland Imhoff** ، **وميشيل أكير**-Michele Acker، **وإريك فان**

ديك-Eric van Dijk، **وتوماس بوليت**-Thomas Pollet، **وكلارا دي إينوسينسيو**-Clara de Inocencio ، **وأوليفييه كلاين**-Olivier Klein. وأشكر أيضًا علماء كثيرين قابلتهم وأتعاون حاليًّا معهم حول موضوع نظريّات المؤامرة، من خلال شبكتي: COST Action «**الدّيناميكيّات النّفسيّة الاجتماعيّة للتّمثيلات التّاريخيّة في الاتّحاد الأوروبّيّ الموسّع**» وCOST Action «تحليل مقارن لنظريّات المؤامرة».

في حياتي الشخصيّة أودّ أن أشكر جون إنسبيرج، الذي يؤمن بنظريّات المؤامرة أكثر بكثيرٍ ممّا أفعل حتّى الآن وهو أيضًا أحد أفضل أصدقائي. وفي الختام، لا يفوتني أن أتقدّم بآيات الشّكر والامتنان لزوجتي، كلوديا فان بروجين فان ريموندت: فقد أسهمت، من حيث لا تدري، في زيادة إنتاجيّتي، بتشتيتها المطّرد لانتباهي، أشكرها حقّا على خَلق بعض التّوازن الّذي أحتاج إليه، من حين إلى آخر، لقد كان من أسباب سعادتي، أن أكتشف بصحبتها أنّ هناك أسبابًا في وسعها أن تشدّنا إلى الحياة أكثر من العلم.

جان ويليم فان بروجين

أمستردام

26 جويلية 2017

سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة

لم تكن هجمات الحادي عشر من سبتمبر، بشكل حدوثها، وبما نجم عنها من متغيّرات، من بين الأحداث الأكثر تأثيرا في التّاريخ الحديث، بل كانت فضلا عن ذلك، من بين أكثر الأحداث توثيقًا في راهننا، فقد تكفّلت كلّ من أطقم الأخبار المحترفة وسكّان مدينة نيويورك بتوثيقِ تلكَ الحادثةِ عبرَ تسجيلات فيديو حيّة، واكبت الحدث الرّهيب، متقصّية تفاصيله، لتتسنّى متابعته على نطاق واسع من العالم. فقد أمكن لنا أن نعاين طائرة يونايتد إيرلاينز، الرّحلة 175 وهي تصطدمُ بالبرج الجنوبيّ لمركز التّجارة العالميّ من جميعِ الزّوايا الممكنة، مترصّدين من مقاعدنا الوفيرة الكيفيّةَ الّتي انهارت بها تلك المباني القويّة الرّائعة، كما لو أنّها بيت ورقيّ. ورغم أنّ الصّور الّتي نقلت هي نفسها، فإنّ النّاس قد اختلفوا في طريقة تلقّيها وتأويلها. فلئن اقتصرت رؤية البعض على ظاهر الأمر فلم تتعدّ المتابعة الدراميّة لاصطدام طائرة ركّاب اختطفها انتحاريّون بالبرجين، وانفجارها المهول، بما أدّى إلى تدميرهما، فإنّ آخرين في مقابل ذلك قد تجاوزت نظرتهم ما حملته التّسجيلات، لترى في الحدث ما لم ترصده العين. فلم تكن الحادثة عملا إرهابيّا، مثلما روّجت لذلك وكالات الأنباء ورجال السّياسة، وإنّما هي عمل منظّم ومدبّر من قبلِ الحكومة الأمريكيّة التي يعتقدونَ أنّها مسؤولة عن تحطّم الطائرة، لغايات أبعد ممّا يمكن أن يتصوّره العقل. ولم يكن مرجع الانفجار اصطدام الطّائرة

بالبرجين، وإنّما هو عائد إلى المتفجّرات التي كانت مخبّأة داخل المباني.

لقد أسهمت مثل هذه القراءة لما حدث في الحادي عشر من سبتمبر في تشكّل نظريّات المؤامرة ورسوخها في الأذهان، ووجدت في الأنترنت وفي وسائل التّواصل الاجتماعي ما عزّزها، فضلا عمّا أنجزته حركة **«9/11 من أجل الحقيقة»**من أفلام وثائقيّة في الغرض، وما حبّر من كتب ومقالات، وما نظّم من مسيرات، بغاية إقناع الجمهور بأنّ الحكومة الأمريكيّة تحجب الحقيقة وتواريها. وقد عرفت تلك النّظريّات فضلا، عمّا تقدّم، تحوّلاتٍ مختلفةً، ومن ذلك أنّ بعض الآراء «الأكثر اعتدالًا»، مقارنة بغيرها، ترى أنّ حكومة الولايات المتّحدة مجرّد شريك في الحادثة، وتعتقد في هذا السّياق أنّ المسؤولين الحكوميّين كانوا على علمٍ بأنّ الضّربات الإرهابيّة على وشكِ الحدوث، وتعمّدوا رغم ذلك عدمَ إفشالها. ومن ضمن التّحوّلات الّتي طرأت على تلك النّظريّات زعمُ بعضهم أنّ للحكومة الأمريكيّة دورًا نشطًا في ما حدث يتجاوز كلّ توقّع، ويرى هذا الفريق أنّ المسؤولين العموميّين قد أشرفوا بشكل مباشر على التّخطيط لتلك الهجمات وتنفيذها. غالبًا ما تصوّر نظريّات المؤامرة الأخيرة تلكَ الهجمات على أنها «عمليّة هجوم زائف»، هجوم خُطّط لهُ ليبدو كما لو أنّه نُفِّذ من قبل دُوَلٍ أو منظّمات أخرى من أجل تبرير أعمال بعيدة المدى مثل الحرب.

إنّ المزاعم المحيطة بنظريّات المؤامرة، ذات الصّلة بالحادي عشر من سبتمبر، كثيرةٌ. ويذهب بعضها إلى أنّ الطائرات كانت تعمل بنظام التّحكم عن بعد، وأنّ المتفجّرات هي الّتي تسبّبت في تدمير البرجين التوأمين، وأنّ مبنى البنتاغون إنّما أصيب بصاروخ، لا بطائرة ركّاب، وغير ذلك كثيرٌ ممّا نجد أنفسنا إزاءه مبهورين، بغضّ النّظر عن مدى اعتقادنا في صحّته، فهو لا يخلو من روعة وممّا به تكون الإثارة. فهي توقظُ في دواخلنا المخاوف والتّوجّس من شكل حضورنا في هذا العالم، وتعزّز يقيننا بأنّنا لا نعدو في محصّل أمرنا أن نكون مجرّد دمًى، تحرّكها قوى خفيّة شرّيرة وغير مرئيّة، وتخضعنا لسلطانها، ترتهن مصائرنا، وتسطّر أقدارنا.

تُشير نظريّاتُ المؤامرة إلى منظّمات خفيّة وسريّة وخبيثة تؤثّر في حياتنا دون أن ندرك ذلك. وتثير الكثير من نظريات المؤامرة إحساسًا يحملُ في طيّاتِهِ سؤالَ «**ماذا لو؟**» بين الناس: هل يمكن أن تكون هذه النظريّات صحيحة، وماذا يعني ذلك بالقياس إلى الكيفيّة التي نعيش بها حياتنا؟ هل نحنُ على علمٍ بالطّريقةِ التي يعمل بها العالم، أم أنّنا نعيشُ على خدعةٍ طوال الوقت؟ ثمّة شيء غامض ومثير للفضول بشكل لا يقاوم ولكنّه مخيف أيضًا يكمنُ خلفَ نظريّة مؤامرة موثوقة. مثلُ هذه الأسئلة المتناسلة هو ما يجعل نظريّات المؤامرة أمرًا يتقاطع فيه اهتمام النّاس ويجذب انتباه قطاع واسع من الجمهور، ويتحكّم بتصوّراتهم، وبموقفهم من العالم..

هذا الخطاب المنتشرِ بكثافةٍ يمكن رؤيته، مثلًا، في المكانة البارزة التي تحتلّها نظريّات المؤامرة في الثقافة الشعبيّة. فمثلًا، نرى أنّ أفلامًا عديدةً مشهورة تنبني على فكرة مركزيّة متمثّلةٍ في خداع الأشخاص أو تهديدهم من خلال مؤامرة شرّيرة من قبلِ قوى خفيّة. في فيلم **عرض ترومان**-The TrumanShow لا تدركُ الشّخصيّة الرّئيسيّة التي يلعبها **جيم كاري**-Jim Carrey أنّ حياتها كلّها هي في الواقع برنامج واقعيّ شائع يخضعُ لسيطرة محطّةٍ تلفزيونيّة. كلّ الأشخاص المحيطين به، سواء كانوا أصدقاءه أو أفراد عائلته أو حتّى زوجته، ليسوا في واقع أمرهم إلّا جزءًا من مؤامرة تهدفُ إلى خداعِهِ وجعلِهِ يعتقدُ أنّه يعيش حياةً طبيعيّةً. وهنالك مثال آخر يبدو مختلفًا تمامًا، ولكنّه قائم في الواقع على المبدإ التآمريّ نفسه، هو فيلم-The Matrix، وفيه يُدفَع المشاهدون إلى اعتقاد أنّ الحياة التي نعرفها وهمٌ افتراضيٌّ سُحِب عمدًا فوق أعيننا وما البشر في الواقع إلّا أسرى مؤامرة تشنّها أجهزة الكمبيوتر المعادية وذات الذكاء العالي، فهي في النّهايةِ تستخدمُ طاقة حياتنا كبطّاريات فعّالة.

ما يربط بين-The Truman Show وThe Matrix هو أنّهما يصوّران إلى حدٍّ مّا نظريّات مُؤامرتيّة ذات الصّبغة الوجوديّة، ممّا يعني أنّ حياتنا في أبسط

تفاصيلها يمكن أن تتحكّم فيها مؤامرةٌ من دون علمنا. لكن توجد أيضًا أفلامٌ عديدةٌ تستند إلى نظريّات المؤامرة الأكثر شيوعًا، تلك التي تصوّرُ كيف تستخدم الوكالات الحكوميّة أو المنظّمات الأخرى القوّة المفرطة لاضطهاد المواطنين. غالبًا ما تمتلك هذه المؤامرات تقنية متقدّمة جدًّا تحت تصرّفها، تمكّنها من تعقّب ضحاياها بشكل فعّال، من قبيل عين النسر، الشبكة، عدوّ الدّولة. أنا شخصيًّا من أشدّ المعجبين بسلسلة-House of Cards التي تبثّ على شبكة نيتفلكس، وهي سلسلة تكشف الكيفيّة الّتي يبني عبرها السّياسيّ الفاسدُ مسيرتَهُ السّياسيّة، حتّى يصبح رئيسًا للولايات المتّحدة الأمريكيّة، متوسّلا في سبيل ذلك الأكاذيب والخداع والرّشوة والتّرهيب والإكراه وحتّى القتل. تشترك جميع هذه الأفلام والمسلسلات في عنصر أساسيٍّ نجدُهُ في الكثير من نظريّات المؤامرة، وهو تصوير الأشخاص أو المؤسّسات القويّة على أنّها شرّيرة وخطيرة وتعمل إلى حدّ كبير في الظّل.

أحد العوامل الّتي تساهم في تحويل نظريّات المؤامرة إلى مركز جذبٍ على نطاق واسع هو وجودُ احتماليّة أن تكون صحيحةً بالفعل. وفي الواقع، فإنّ المؤامرات قد تتحوّل من الإمكان إلى الوجوب، لتكون وقائع متحقّقة، وملموسة. ولعلَّ «**قضيّة إيران كونترا**»[1] Iran–Contra affair من بين أهمّ الأمثلة الشّائنة على وجودِ مؤامرة حقيقيّة على أعلى المستويات السّياسيّة. حدثَ ذلكَ في ثمانينيّات القرن الماضي حينَ تبيّن أنّ مسؤولي الحكومة الأمريكيّة قد يسّروا في كنف السّرّيّة بيعَ الأسلحة لإيران، رغم وقوعها تحت دائرة الحظر، ثمَّ استخدموا الأرباح لتمويل ثوّار الكونترا[2] سرًّا في نيكاراغوا، في الوقت الّذي جرّم فيه الكونغرس تمويل

(1). قضيّة إيران كونترا أو فضيحة إيران كونترا التي عقدت بموجبها الحكومة الأمريكيّة تحت إدارة الرئيس الأمريكيّ ريغان اتّفاقًا مع إيران لتزويدها بالأسلحة بسبب حاجة إيران إلى أنواع متطوّرة منها أثناء حربها ضدّ العراق وذلك لقاء إطلاق سراح بعض الأمريكان الذين كانوا محتجزين في لبنان. (المترجم)

(2). جماعة يمينيّة متمرّدة في نيكاراغوا، مدعومة من أمريكا. كانت نشطة من العام 1979 إلى أوائل التسعينيّات في معارضة الاشتراكيّة الساندينيّة، نسبة إلى اسم الحزب المشتقّ من اسم أغوستو

الكونترا. ومن أهمّ المؤامرات الحقيقيّة الأخرى نذكرُ ما يسمّى بتجربة توسكيجي للزهري[3] Tuskegee-syphilis، إذ تظاهر العلماء بتقديم رعاية صحّيّة مجّانيّة للرّجال الأمريكيّين من أصل إفريقيّ. ولكنّهم كانوا في الواقع يدرسون التّطور الطبيعيّ لمرض الزّهريّ الذي لم يكن لهُ علاجٌ حينها، وقد شمل الأمر 399 رجل مصاب بمرض الزّهريّ لم يكونوا على دراية بحالتهم، و201 رجل سليم. استمرّت التّجربة لمدّة 40 عامًا (1932 إلى 1972)، وحجبت الحقيقة عن أولئك الرّجال، طيلة ذاك الزّمن، فلم يعلموا أنّهم كانوا مجرّد فئران تجارب، فكانوا أجهل النّاس بحقيقة وضعهم الصّحّيّ، وقضوا نحبهم بمرضِ الزّهريّ.

محرقة الهولوكوست نفسها كانت نتيجةً لمؤامرة حقيقيّة. فلئن تمّ بالفعل اضطهاد اليهود وقتلهم على نطاق واسع في ألمانيا النّازيّة في الثلاثينيّات وأوائل الأربعينيّات من القرن الماضي، فإنّ النّازيّين كانوا يأملون في البداية أن يغادر معظم اليهود البلاد طواعية بسبب المناخ العدائيّ الذي كانَ سائدًا حينها. ومع ذلك، لم يحدث هذا بالمقياس الذي أراده هتلر، وفي يناير 1942، اجتمع 15 ضابطًا نازيًّا رفيع المستوى معَ ضبّاط من وحدة شوتزفال (أو وحدات أس أس) سرًّا في فيلا في فانسيWannsee بالقرب من برلين. ورغمَ أنّ هتلر لم يحضر شخصيًّا، فإنّ الاجتماع كان يهدف إلى وضعِ خطّة ملموسة لتنفيذ أوامر هتلر الأخيرة التي اختصرت بـ **«الإبادة الجسديّة»** لجميع اليهود في أوروبا. كان هذا الاجتماع، المعروف باسم **«مؤتمر فانسي»**، بمثابة بداية التّرحيل الجماعيّ لليهود إلى معسكرات الموت النازيّة، حيث قُتلوا في غرف الغاز على نحوٍ لم يسبق لهُ مثيل. تعتبر المحرقة الآن واحدة من أكبر المآسي في تاريخ البشريّة. ومع ذلك، لم يجد المدّعي العامّ حتّى

سيزار ساندينو الذي قاد المقاومة النيكاراغويّة ضدّ احتلال الولايات المتّحدة لنيكاراغوا في الثلاثينيّات. (المترجم)

(3). تجربة توسكيجي للزهري هي تجربة سريريّة شائنة السمعة أقيمت بين عامي 1932 و1972 عبر خدمة الصحّة العامّة الأميركيّة لدراسة التطوّر الطبيعيّ لحالات الزُّهريّ غير المعالج في الرجال السود بريف ولاية ألاباما. وقد أُخبروا أنّهم كانوا يتلقّون رعاية صحيّة مجّانيّة من الحكومة الأميركيّة. (المترجم)

عام 1947 دليلًا على أنّ مؤتمر فانسي قد انعقد بالفعل، إلى أن اكتُشِفت محاضر هذا الاجتماع.

يتناول هذا الكتاب سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة من زاوية سيكولوجيّة. يوجد الكثير من نظريّات المؤامرة المختلفة التي تدور حول الإنترنت، بعضها معقول أو على الأقلّ ممكن من النّاحية النظريّة، ومن ذلك أنَّ وكالات الاستخبارات تضعُ أحيانًا حدودًا لما هو مقبول قانونيًّا أو أخلاقيًا، كما تشير تسريبات سنودن، وأمّا البعض الآخر فغريب ومن غير المرجّح أن يكون صحيحًا، ومن ذلك نظرية المؤامرة المتمثّلة في أنّ الأرض يحكمها جنس من السّحالي الغريبة المتنكرة في زيٍّ بشريٍّ. وفضلا عمّا تقدّم، توجد أمثلة عديدة على مؤامرات سياسيّة معاصرة، منها اختراق المخابرات الأمريكيّة للهاتف المحمول الخاصّ بأنجيلا ميركل، وأخرى ضاربة في القدم، ومن ذلك مؤامرة مجلس الشّيوخ الرّومانيّ[4].

ما هي نظريّة المؤامرة:

رغم توفّر تعريفات مختلفة لنظريّات المؤامرة، فإنّ التّعريف الّذي أفضّله هو الآتي: «المؤامرةُ هي اعتقاد أنّ عددًا من الأشخاصِ الفاعلين يتّفقونَ معًا في سرّية تامّة على تحقيق هدف خفيٍّ، يُنظر إليه على أنّه هدفٌ غير قانونيّ أو خبيث»[5]. هذا تعريف مطلقٌ، وبناءً عليه، يمكن أن تتّخذ نظريّات المؤامرة أشكالًا عديدة تتجلّى في الكثير من مجالات الحياة المختلفة. يمكن للبشرِ أن يؤمنوا بنظريّات المؤامرة في

---

(4) المؤامرة القيصريّة الثانية والمعروفة أيضًا باسم كاتيلين على اسم السّيناتور لوسيوس سيرجيو سكاتيلينا للإطاحة بشيشرون في عام 63 قبل الميلاد. خطّط كاتيلين لقتل عددٍ كبير من أعضاء مجلس الشّيوخ ثمّ الانضمام بعد ذلكَ إلى جيش مانليوس وأخيرًا العودة إلى روما والسّيطرة على الحكومة ولتنفيذ الخطّة كان عليه قتل شيشرون. لكن كوينتوس كوريوس، عضو مجلس الشيوخ الذي أصبح فيما بعد أحد كبار مُخبري شيشرون، حذّر شيشرون من التهديد بواسطة عشيقته فولفيا. نجا شيشرون من الموت ذلك الصباح بوضع حرّاس عند مدخل منزله، تمكّنوا من إخافة المتآمرين وإبعادهم. وفي اليوم التّالي أدان شيشرون كاتيلين أمام مجلس الشّيوخ. (المترجم).

(5) Aarnio, K., & Lindeman, M. (2005). Superstition, education and thinking styles. Personality and Individual Differences , 39 , 1227–1236.

تصوّرهم للحكومة أو المؤسّسات الحكوميّة (مثل وكالات الاستخبارات)، ويمكنهم أيضًا الإيمان بنظريّات المؤامرة في تعاملهم مع فروع الصّناعة بأكملها (مثل صناعة الأدوية) أو حول البحث العلميّ (على سبيل المثال، نظريّات مؤامرة تغيّر المناخ). غالبًا ما يحمل الموظّفون في مكانِ العمل فكرة تآمريّة تجاهَ إدارتهم، مثلًا يمكنهم اعتقاد أنّ مديريهم يحملونَ أجندة خفيّة تهدفُ إلى تحقيق أهداف أنانيّة. قد تحدث نظريّات المؤامرة في الألعاب الرّياضيّة (على سبيل المثال، اعتقاد أنّ الحكم تلقّى رشوةً من الفريق المنافس). وقد يحمل الناس في حياتهم الشخصيّة أيضًا نظريّات تآمريّة من خلال التفكير في أنّ الآخرين يتآمرون ضدّهم شخصيًّا، على الرّغم من أنّ الأشكال الأخيرة من نظريّات المؤامرة الشّخصيّة الأكثر توجّها في الخطاب العلميّ تعتبر أمثلة على «**جنون العظمة**» وتختلف نوعيًّا عن معتقدات المؤامرة، وتضع افتراضات حول كيفيّة خداع مجموعات كبيرة من المواطنين من قبل السّلطات الرّسميّة.

لتحديد تعريفٍ حولَ نظريات المؤامرة بشكل أكبر، أقترح أن تتوفّر في أيّ معتقدٍ خمسة مكوّنات حاسمة على الأقلّ، لنطلقَ عليهِ كلمة «**مؤامرة**». وهي الآتية:

1. **الأنماط-Patterns**: أيّ نظريّة مؤامرة تشرح الأحداث من خلال خلقِ روابط غير عشوائيّة بين الأحداث والأشياء والأشخاص. بعبارة أخرى، تعتبرُ نظريّة المؤامرة أنّ سلسلة الحوادث الّتي تسبّبت في حدث مريب لم تحدث مصادفةً.

2. **العاملُ-Agency**: ترى نظريّة المؤامرة أنّ حدثًا مريبًا نتج بطريقة متعمّدة من قبل جهاتٍ فاعلة: كانت هناك خطّة معقّدة ومفصّلة طُوِّرَت ونُفِّذت عن قصد.

3. **الائتلافات-Coalitions**: عادة ما تضمُّ نظريّة المؤامرة حولها ائتلافًا أو مجموعة من الجهات الفاعلة المتعدّدة، وليس بالضرورة أن يكونوا بشرًا (نجدُ أمثلة



على نظريّات المؤامرة غير البشريّة في فيلم-The Matrixومؤامرة الزّواحف[6]. إذا اعتقد المرء أنّ ذئبًا منفردًا واحدًا هو المسؤول عن حدث مشبوهٍ، فإنّ هذا الاعتقاد لا يمكنُ أن نَسِمهُ بكونه نظريّة مؤامرة، وذلكَ لسبب بسيط: هذا الاعتقاد لا ينطوي على مؤامرة.

4. العدائيّة: تميل نظريّة المؤامرة إلى الفرضيّة التي تقول إنَّ الائتلاف المشبوه يسعى إلى تحقيق أهداف شرّيرة أو أنانيّة لا تندرجُ ضمن المصلحة العامّة. بالتّأكيد قد يشكُّ النّاس أحيانًا في وجود مؤامرة خَيّرة، وبالفعلِ، توجدُ مؤامرات خَيّرة (باعتبارنا بالغين، نتآمر كلّ عام لإقناع الأطفال بوجود بابا نويل). ولكن في هذا الكتاب، وكذلك في الأدبيّات الأخرى التي تتناولُ هذا الموضوع، فإنّ مصطلح «**نظريّة المؤامرة**» مقصور على المؤامرات التي يشتبه في أنّها معادية. من المرجّح أن يرتكز الاعتقاد بنظريّات المؤامرة الخَيّرة على عمليّات سيكولوجيّة مختلفة عمّا هو موصوف في هذا الكتاب.

5. التّكتّم المستمرّ: تدور نظريّات المؤامرة حول تحالفات تعمل في الخفاء. أقصد بالتّكتّم «المستمرّ» أنّ المؤامرة لم تُكشَف بأدلّة قاطعة، وهكذا فإنّ عمليّاتها المفترضة تظلّ سرّيّة وغير مؤكّدة. المؤامرة الّتي يُكشَف عنها وبالنتيجة تثبُتُ صحّتُها (على سبيل المثال، مؤتمر فانسي) لم تعد «نظريّة» بل هي مثال راسخ على تشكيل المؤامرة الفعليّة. وهكذا فإنّ نظريّات المؤامرة بحكم التّعريف غير مثبتة.

هذه الصّفات الخمس تميّزُ الاعتقاد بنظريّات المؤامرة من غيره من الاعتقادات السّائدة بين النّاس. ومن ذلك الاعتقاد الخارق للطبيعة والقائل إنّ من الممكن الاتّصال بأرواح المتوفّين من الأقارب. يشترك هذا الاعتقاد في وجود الأشباح في اثنين على الأقلّ من المكوّنات الرّئيسية لمعتقدات المؤامرة. يتضمّن الإيمان بالأشباح أنماطًا، أي أنّه يضع افتراضات حول كيفيّة تطوّر الحياة بعد الموت بطريقة غير

---

(6).تعتقد فئة صغيرة من المجتمع الأمريكيّ أنَّ الولايات المتّحدة تسيّر من طرفِ الزّواحف، ذلكَ أنّهم يتصوّرون أنَّ الزّواحف يمكنها أن تأخذ هيئة إنسان وبالنتيجة يمكنها خداع البشريّة وإيهامها بأنّها جزءٌ منها. (المترجم)

عشوائيّة؛ ومن المرجّح فضلا عن ذلك أن يؤثّر الإيمان بالأشباح في كيفيّة تفسير المرء للأحداث الغامضة في الحياة بكشفِ علاقاتٍ سببيّة، مثلما أنّه يتضمّن القدرة إذ يُفترض عادةً أنّ للأشباح أهدافًا وعواطف ورغبات، وهي على سبيل المثال قادرةٌ على التّواصل مع الأشخاص الأحياء عبر وسيط. لا يتطلّب الإيمان بالأشباح «التّكتّم المستمرّ»، ولكن يمكن للمرء أن يقول إنّ هناك على الأقلّ أوجه تشابه مع هذا المكوّن، ذلك أنّ الاعتقاد بوجودِ الأشباح غير مثبت أيضًا، وهو يتعلّق بالقوى غير المرئيّة، ويتميّز بالغموض. لكنّ عناصر التّحالف والعداء غير موجودة، على الأقلّ باعتبارهما متطلّبات ضروريّة لإثباتِ صحّة هذا الاعتقاد. قد يُنظر إلى الأشباح على أنّها معادية، لكنّ العداء هنا لن يكونَ ضرورةً ليؤمنوا بها. ولا يحتاج المرء تبعا لذلك إلى خلقِ فرضيّة إضافيّة تبيّنُ أنَّ مجموعةً من الأشباح تنظّم اجتماعًا لوضعِ خطط حولَ كيفيّة إيذاء النّاس. إنّ ما يجعلُ أحد الجوانب الأساسيّة لمعتقدات المؤامرة فريدةً بالقياس إلى أشكال المعتقدات الأخرى هو أنّ هذه المعتقدات تتضمّن مجموعة سرّية ومعادية من الفاعلين.

سيكولوجيّة نظريّة المؤامرة:

«هل فكَّرتَ يومًا في احتمال أن تكون نظريّاتنا صحيحة؟» هذا سؤال أتلقّاهُ بانتظامٍ عبر البريد الإلكترونيّ من المواطنين الهولنديّين النّشطين على مواقع المؤامرة. غالبًا ما تكون لهذه الرّسائل نبرة غاضبة تعبّر عن شعور مّا بالإهانة، يتحسّسه، جرّاء أبحاثي حول نظريّات المؤامرة، مواطنون حريصون شديد الحرص على إقناعي بأنّ الإيبولا قد اختُرِعت بالفعل في المختبر، أو أنّ أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت بالفعل مسألة أمريكيّة داخليّة. من الرّسائل التي تصلني عادةً (وبشكل خاطئ) أنّ المرءَ إذا درس سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة، سيرى بالضّرورة أنّ جميع نظريّات المؤامرة التي يؤمنُ بها الناس باطلةٌ، أو أنّ الأشخاص

الذين يؤمنون بنظريّات المؤامرة أشخاصٌ مرضى. لديّ ردّان على مرسلي تلكَ الرّسائل البريديّة، أمّا الأوّل فهو حاجتهم إلى الاستزادة المعرفيّة، وإلى الاطّلاع على بحوث أكاديميّة أعمق في الغرض، وقد كان بإمكانهم مثلًا أن يطّلعوا على بحثٍ لي عن الميل البشريّ إلى الغشّ والفساد، وقد نُشِرَ مؤخّرًا في كتاب، ويتضمّن بحثُنا السّؤال الإشكاليّ المتعلّق بما يدفع النّاس إلى التّآمر أحيانًا لتحقيق أهداف ومآرب شخصيّة[7]. وقد حصل الاتّفاق بين العلماء حول تقاطع النّاس في هذا الميل، بنسبٍ متفاوتةٍ.

وأمّا الرّدّ الثّاني، فهو الأكثر أهمّيّة، والأشدّ إفحامًا، فالسّؤال المتعلّق بسيكولوجيّة نظريّات المؤامرة لا يدور حول ما إذا كانت صحيحة أم خاطئة، بل هو مرتبط بمن يؤمن بها أو مَن لا يؤمن بها. توجد نظريّات مؤامرة عديدة يمكن اعتبارها غير عقلانيّة إذا ما اقترنت بالمنطق أو بالأدلّة العلميّة، ولعلَّ حقيقة إيمان النّاس بها سببٌ وجيه لدراسة هذا الموضوع (المزيد عن ذلك لاحقًا). إنّي على استعداد للإقرار بأنّني متشكّك جدًّا في بعض نظريّات المؤامرة الهائلة التي تدور حول الإنترنت. وأجد أنّهُ من غير المعقول جدًّا أن تكون الإيبولا نتيجة لنشاطٍ مخبريّ. بل أعتقد اعتقادًا راسخًا أنّ هجمات 11 سبتمبر/ أيلول نفّذتها مجموعة من 19 إرهابيًّا انتحاريًّا من المنتسبين إلى القاعدة – وهذه ليست نظريّة مؤامرة بالتّعريف المحدّد، لأنّ الأدلّة الداعمة لهذا الادّعاء ساحقة إلى درجة أنّهُ من اليسير القول إنّه قد تمّ الكشف عن مؤامرة هؤلاء الإرهابيّين التسعة عشر (أي أنّه لا يوجد «تكتّم مستمرّ»). أخيرًا، لئن كنتُ أعتبر أنّهُ من المحتمل أن يكون لي هارفي أوزوالد[8] قد تلقّى مساعدة من أشخاص غير معروفين أثناء التحضير لاغتيال

.(7) Bartlett, J., & Miller, C. (2010). The power of unreason: Conspiracy theories extremism and counter-terrorism. London, UK: Demos.

(8).كان لي هارفي أوزوالد ماركسيًّا أمريكيًّا وجنديًّا سابقًا في قوّات مشاة بحريّة الولايات المتّحدة)المارينز (اغتال رئيس الولايات المتّحدة جون ف. كينيدي في 22 نوفمبر 1963. أُعفي أوزوالد من الخدمة العسكريّة في المارينز إلى الاحتياطيّ وانشقّ إلى الاتّحاد السوفيتيّ في أكتوبر 1959. عاش في مينسك حتّى شهر يونيو من عام 1962، عندما عاد إلى الولايات المتّحدة مع زوجته الروسيّة، مارينا،

جون كنيدي، وهكذا قد يكون في الأمر مؤامرة، فأنا أعتبر أنّهُ من غير المحتمل أن تكون هذه المساعدة قد جاءت من وكالة المخابرات المركزيّة أو الرّوس أو الكوبيّين. ولكنّ آرائي بخصوص ما تقدّم ذكره من أمثلة، لا يمثّل في واقع الأمر الغاية من هذا الكتاب.

يركّزُ هذا الكتاب على سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة، وهي الدراسة العلميّة التي تفسّر الأسباب الكامنة خلفَ ميولِ البعض أكثر من غيرهم إلى الإيمان بنظريّات المؤامرة. الأسئلة النموذجيّة التي تشكّلُ جزءًا من سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة هي: ما هي العوامل الّتي تحدّدُ ما إذا كان الشخص يؤمنُ بنظريّات المؤامرة أو لا يؤمنُ بها؟ إلى أيِّ درجةٍ يمكن للإيمان بنظريّةٍ مؤامرةٍ بعينها (كنظريّة المؤامرة في صناعة الأدوية) أن يتنبّأ باحتمال الإيمان بنظريّةٍ مؤامرةٍ أخرى (كنظريّة المؤامرة في قضية مقتل الرّئيس جون إف. كينيدي)؟

وما الحالات التي يكون فيها الناس أكثر عرضةً للإيمان بنظريّات المؤامرة والحالات التي يكونون فيها أقلَّ قابليّة للإيمان بها؟ وما العواقب التي تنتج عن نظريّات المؤامرة وكيفَ تنعكسُ على مشاعر المقتنعين بها وعلى سلوكيّاتهم؟ لدراسة هذه القضايا ليس ثمّة حاجةٌ إلى أن تكون نظريّة المؤامرة، بخصوص الحدث الذي يكون قيد الاستقصاء، كاذبةً بالضرورة. ثمّ إنّه لا توجد حاجةٌ إلى أن يشكّل ظهورُ أيّ دليلٍ جديدٍ على وقوع مؤامرة فعليّة نتيجةً من النتائج المستخلَصة في هذا الميدان البحثيّ.

اسمحوا لي أن أوضّح هذا المبدأ بإيجازٍ من خلال مقارنة سيكولوجيّة المؤامرة بسيكولوجيّة الدّين. يدرس علماء اجتماع كثيرون المعتقدات الدّينية، وإحدى النتائج النموذجية في مجال البحث هذا هي أنّ المتديّنين يكونون أكثر تمسّكًا بإيمانهم

واستقرّ في نهاية المطاف بدالاس. استنتجت خمسة تحقيقات حكوميّة أنّ أوزوالد أطلق النار على كينيدي وقتله من الطابق السادس من دار محفوظات كتب مدرسة تكساس أثناء تنقّل الرئيس في موكب عبر ديلي بلازا في دالاس.

في مواقف مخيفةٍ لا يمكن التنبّؤ بها. فأنا متأكّدٌ من أنّ الكثير من القرّاء تتملّكهم الرّغبة في الدّعاء كلّما تملّكهم الخوف. والنظريّة الكامنة وراء هذه النتيجة هي أنّ الناس في حاجةٍ إلى الشعور بأنّهم يتحكّمون إلى حدّ مّا في بيئتهم. المواقف غير المتوقّعة تجعل النّاس يشعرون بقدر أقلّ من السّيطرة على حياتهم، ونتيجة لذلك، يبدأ الناس في الاعتماد بقوّةٍ أكبر على مصادر خارجيّة للسّيطرة مثل الله[9]. هل من الضّروريّ لهذا النّوع من البحث أن يثبت أو يدحض - أو على الأقلّ أن يضع افتراضات - الوجود الفعليّ لله؟ ستكون إجابتي مقتضبةً وتكتفي بالقول «لا»: إنّ مجرّد ملاحظة أنّ النّاس يختلفون بشدّةٍ في تديّنهم كافٍ لإثارة السّؤال الشّرعيّ: لماذا يستمتعُ بعض الأشخاص بمعتقدات دينيّة معيّنة على عكس البعض الآخر؟ إنّ اكتشاف أنّ الناس أكثر تديّنًا في المواقف المخيفة يكشفُ لنا معطيات كثيرة على درجة من الأهمّية حولَ العمليّات النّفسيّة الكامنة وراء الدّين. وعلى سبيل المثال، فإنّ أحد التفسيرات المحتملة لنتائج هذه الأبحاث هو أنّ الإيمان بالله يمكن أن يكون مصدرًا للرّاحة في المواقف المخيفة. لا يصدر هذا الاستنتاج أيّ حكم على سؤال ما إذا كان الله موجودًا بالفعل أم لا، كما أنّه لا يتضمّن حكمًا قيميًّا حولَ المؤمنين أو غير المؤمنين.

مبدأ سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة هو نفسه: من الممكن تمامًا دراسة هذه المعتقدات دون معرفة ما إذا كانت بعض نظريّات المؤامرة المحدّدة صحيحة أم خاطئة. في واقع الأمر، أنا أعرف دراسة بحثيّة منشورة تناولت مسألة الإيمان بنظريّات المؤامرة الّتي تبيّن فيها بعد أنّها صحيحة. ركّزت الدّراسة بشكل خاصّ على قضيّة ووترغيت. في عام 1972، قُبِض على مجموعة مكوّنة من خمسة رجال يسرقون مقرّ اللجنة الوطنيّة الدّيمقراطيّة في فندق ووترغيت، بالعاصمة واشنطن. كانت عمليّة السّطو جزءًا من مخطّطٍ أكبر يتضمّن تجسّس الجمهوريّين المؤثّرين في

.(9)Blackmore, S., &Trościanko, T. (1985). Belief in the paranormal: Probability judgements, illusory control, and the 'chance baseline shift'. British Journal of Psychology, 76 , 459–468.

الحزب الدّيمقراطيّ لتحقيق مكاسب سياسيّة، وقد تضمّنت التّنصّت على مكاتب المعارضين الديمقراطيّين وغيرها من انتهاكات السّلطة. ونفى كثيرون من كبار مسؤولي البيت الأبيض، بمن فيهم الرئيس نيكسون نفسه، في البداية أيّ علاقة لهم بعدما قُبِضَ على اللّصوص. لكن في التحقيق الذي أعقب ذلك، أشارت الأدلّة بشكل متزايد إلى أنّ نيكسون حاول جاهدًا التستّر على تورّطه شخصيًّا في عمليّة السّطو والأنشطة غير القانونيّة الأخرى المرتبطة بها. في نهاية المطاف، دعم التّسريبُ العلنيّ للتّسجيلات التي قام بها نيكسون في اجتماعات عُقدت بمكتبه، دورَه في عمليّة التّستّر، ممّا دفعه إلى الاستقالة من الرّئاسة في 9 أغسطس 1974.

أجرى باحثان أكاديميّان، هما توماس رايت وجاك أربوثنوت، دراسة حول مدى شكّ الناس في قضيّة ووترغيت عند وقوعها[10]. أُجريت الدراسة في مايو 1973 أي قبل جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ وقبل أن تأمر المحكمة العليا بنشر تسجيلات نيكسون على أشرطة الفيديو، أي قبل أن يثبت تورّط نيكسون في قضية ووترجيت بما لا يدع مجالاً للشّك.. في ذلك الوقت، كان الادّعاء القائل بأنّ الرّئيس نيكسون نفسه، كان لاعبًا نشطًا في فضيحة ووترغيت لا يزال مجرّدَ «نظرية تآمريّة» وفقًا لجميع المكوّنات الخمسة المقدّمة سابقًا. في دراستهما، كان الباحثان مهتمّان بشكل خاصّ بالعوامل التي من شأنها أن تكشف عن مدى ارتياب الأشخاص من الدّور المحتمل الذي قد يكون نيكسون لعبه في فضيحة ووترجيت. فقد ركّزا على الثقة الشخصيّة واختبرا ما إذا كان الأشخاص الذين لديهم ميل هيكليّ إلى عدم الثقة بالآخرين أكثر شكًّا تجاه فرضيّة مشاركة نيكسون. ودرسا أيضًا الدورَ الذي تلعبه الأيديولوجيا السّياسية واختبرا ما إذا كان الديمقراطيّون أو الجمهوريّون أكثر تشكّكًا في نيكسون. أشارت النّتائج إلى أنّه كلّما زاد عدم ثقة الناس بالآخرين في حياتهم اليوميّة، زاد احتمال إدراكهم لمؤامرة

.(10)Blagrove, M., French, C., & Jones, G. (2006). Probabilistic reasoning, affirmative bias and belief in precognitive dreams. Applied Cognitive Psychology, 20, 65–83.

يشارك فيها نيكسون. وكان الديمقراطيّون، فضلا عن ذلك، أكثر ميلًا من الجمهوريّين إلى التَّصديق بنظريّة المؤامرة هذه.

ما تبع ذلك معروف: نعم، كان الأمرُ صحيحًا. حاول نيكسون جاهدًا التستّر على دوره في ووترجيت وشارك شخصيًّا في تسريب غير قانونيّ لمعلومات حسّاسة عن خصومه السياسيّين، واستخدمها لمصلحته السّياسيّة. لم يعد تورّط نيكسون الشخصيّ في فضيحة ووترغيت يُصنّف على أنّه «نظريّة مؤامرة»، نظرًا إلى أنّهُ لم يعد هناك تكتّم مستمرّ: تمّ الكشف عن المؤامرة، وهكذا لم تعد «نظريّة»، وأصبحت ووترجيت مثالًا ملموسًا وموثّقًا على مؤامرة فعليّة حدثت في أعلى مستوى سياسيّ. هل يجب علينا الآن التّخلّي عن استنتاجات رايت وأربوثنوت؟ هل حقيقة أنّ نظريّة المؤامرة هذه قد ثبتت تقوّضُ من نتائجها بأيّ شكل من الأشكال؟

لا أعتقد ذلك. فلئن وُجِدت قلّة من النّاس تجادلُ بشأن دور نيكسون في ووترجيت في الوقت الحاضر، فإنّ هذه القضيّة كانت في مايو 1973 لا تزال غير مثبتة وتخضع لنقاش عامّ مكثّف. لم يكن السّؤال البحثي لرايت وأربوثنوت مطروحًا حولَ ما إذا كانت نظريّة المؤامرة هذه صحيحة أم خاطئة. كان السؤال يتمحورُ حولَ ماهيّة الشخصيّة والعوامل السّياسيّة التي يمكن أن تتنبّأ بمدى إيمان المواطنين بها في زمنٍ معيّنٍ، حينَ كان الدّليل على هذه النظريّة لا يزال منقوصًا. تمَّ تكرار النتائج التي لاحظوها من قبل باحثين عديدين وفي نظريّات تآمريّة أخرى عديدةٍ. ينزعُ الأشخاص الذين يميلون إلى عدم الثقة بالآخرين إلى الإيمان بنظريّات المؤامرة أكثر من الأشخاص الذين يميلون إلى الثقة بالآخرين. علاوةً على ذلك، يؤمن الناس بشكل خاصٍّ بنظريّات المؤامرة تجاهَ الجماعات التي تختلف أيديولوجيًّا. وهكذا، من المرجّح أن يؤمن الديمقراطيّون بالنّظريّات التي تنطوي على مؤامرة من قبل الحزب الجمهوريّ، ومن المرجّح أن يعتقدَ الجمهوريّون بالنّظريّات التي تنطوي على مؤامرة من قبل الدّيمقراطيّين. كانت هذه هي

الاستنتاجات التي أعقبت دراسة رايت وأربوثنوت، ومازالت قائمة حتّى اليوم.

تدرسُ سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة من يؤمن بهذه النظريّات ومن لا يؤمنُ بها، بدلا من دراسة ما إذا كانت نظريّة مؤامرة معيّنة صحيحةً أم خاطئة. ليس لديّ معرفة حول احتمال وجود نظريّات مؤامرة معيّنة أكثر من المواطنين الآخرين، ولا يمكنني الوصول إلى معلومات استخباراتيّة حكوميّة بعينها، وهذا ليس ضروريًّا لدراسة سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة. في الفصول التّالية، سأسلّطُ الضّوء على العوامل الظّرفيّة والشّخصيّة الّتي تتنبّأ بمدى حساسيّة الأشخاص وقابليّة إيمانهم بنظريّات المؤامرة. ومع ذلك، في الجزء المتبقّي من هذا الفصل، سأتناول مسألتين عالقتين تتعلّقان بسيكولوجيّة نظريّات المؤامرة: هل يجب أن نهتمّ بما إذا كان النّاس يحملون مثل هذه المعتقدات أم لا، وهل يجب أن نتعامل مع الأشخاص الذين يؤمنون بنظريّات المؤامرة بشكل مرضيّ، بما في ذلك العبثيّة منها؟

لماذا علينا الاهتمام بنظريّات المؤامرة؟

يقدّم علم النفس نهجًا علميًّا يساعد بشكل موضوعيّ على تحديد العوامل الشخصيّة أو الظرفيّة التي تحدّد الإيمان بنظريّات المؤامرة من عدمهِ. الآن بعد أن أثبتنا أنّ هذا النهج لا يحاول إثبات نظريّة مؤامرة معيّنة أو دحضها، يصبح السؤال المهمّ مطروحًا حولَ ما إذا كان ينبغي علينا الاهتمام بنظريّة المؤامرة وما تحملهُ من معتقدات بشكلٍ عامّ. إذا كانَ من الممكنِ لبعض نظريّات المؤامرة أن تكون صحيحة، فهل من الصّواب أن تستجلبَ اهتمامَ مجموعات مختلفة من المواطنين؟ هل يجب علينا اعتبارُ نظريّات المؤامرة شكلًا من أشكال التّسلية غير الضّارة؟ أو هل يمكن أن تكون نظريّات المؤامرة ضارّة في الواقع بحياة النّاس والمجتمع ككلّ، وهل ينبغي أن نهتمّ بهذه المعتقدات؟

حجّتي هي التالية: يجب أن نتعامل مع المسألةِ بقلق أكبر، لأنّه في كثير من الحالات تكون نظريّات المؤامرة غير عقلانيّة، ومع ذلك يمكنها أن تسبّب ضررًا

حقيقيًا لأشخاص حقيقيّين. اسمحوا لي أوّلًا أن أجزم بأنّني لا أصرّحُ بوجوبِ اتّباع قادة مجتمعنا - السّياسيّين والمديرين والشّخصيات الإعلاميّة المؤثّرة- دون نقد أو تدقيق. فالعقليّة النّقدية السّليمة تحتّمُ علينا تقييم تصرّفات مَن هم في السّلطة بكلِّ عناية، والتّعبير عن القلق الذي يعتملُ في داخلنا، إذا رأينا أنّ المسارَ السّياسي يحملنا إلى الأسوإ أو إذا اشتبهنا في سوء تصرّف مّا. ثمّة أمرٌ معلومٌ لدى الجميع، وهو وجودُ خيط رفيع فاصلٍ، بين الشكّ السّليم ونظريّة المؤامرة المدمّرة. لكنّ العقليّة النقديّة لا تعني القبول غير النقديّ لأيّ نظريّة مؤامرة غريبة أو بعيدة المنال. فلئن أمكنَ للمرء العثورُ على أمثلةٍ مؤكّدةٍ على تكوّن مؤامرة فعليّة، فإنّ الواقعَ يشيرُ إلى أنّ الغالبيّة العظمى من نظريّات المؤامرة الّتي أقرّ بها المواطنون على مرّ العصور تبيّن أنّها خاطئة[11]. يستهدف قلقي بشكل خاصّ الكثير من نظريّات المؤامرة التي تتحدّى المنطق، أو تتجاهل الأدلّة العلميّة، أو تلقي باللّوم على الأبرياء أو الجماعات المختلفة، ومن نواحٍ عديدةٍ، يمكن أن يكون الإيمان بنظريّات المؤامرة هذه أمرًا ضارًّا. ما يعتقده النّاس هو الدّافع وراء سلوكهم؛ وكلّما كانت هذه المعتقدات غير عقلانيّة، زاد السّلوك اللّاعقلانيّ النّاتج عنها.

في الوقت الحاليّ، تمتلئ شبكة الإنترنت بالمعلومات الخاطئة حول اللّقاحات، ممّا يجعل الكثير من النّاس يحجمون عن تطعيم أنفسهم أو أطفالهم. الكثير من هذه المعلومات الخاطئة متجذّر في نظريّات المؤامرة. إحدى الأفكار ذات الصّلة الّتي يمتلكها الكثير من الأشخاص داخل «حركة مناهضة اللّقاحات»، هي أنّ اللقاحات تسبّب التوحّد وأنّ مصانعَ الأدوية تتآمر للحفاظ على سرّية البرهان الذي يثبت صحّة تلكَ الأفكار. نتيجة لذلك، يتجنّب الكثير من الناس أخذ اللّقاحات، ويعرّضون أنفسهم وأطفالهم والآخرين لخطر غير ضروريّ للإصابة بأمراض خطيرة يمكن تجنّبها. لا تظهر الأدلّة العلميّة أيّ علاقة على الإطلاق بين

.(11)Bressan, P. (2002). The connection between random sequences, everyday coincidences, and belief in the paranormal. Applied Cognitive Psychology, 16, 17–34.

اللّقاحات ومرضِ التّوحّد. لقد كان اكتشاف اللّقاحات إنجازًا طبّيًّا كبيرًا يحمي المواطنين من الأمراض التي تهدّد حياتهم، ولدينا جميعًا سبب للامتنان لهذا الإنجاز العلمي المهمّ. يجب على أيّ آباء مسؤولين التّأكد من حصول أطفالهم على اللّقاحات اللّازمةِ في الوقت المناسب، ولكنّ الإيمان بنظريّات المؤامرة هو الذي يجعل الكثير من الآباء يقرّرون خلاف ذلك.

تؤثّر معتقدات المؤامرة أيضًا على عمليّة التّصويت في الانتخابات، ويمكنها بناءً على ذلك تحديد نتائج الانتخابات التي تحدّدُ بنيَة المجتمع المستقبليّة. في الفصل الخامس سأُلقي الضّوء على فكرة مفادها أنّ الإيمان بنظريّات المؤامرة مرتبط بتفضيل التّيارات السّياسيّة المتطرّفة نسبيًّا: الأحزاب الاشتراكيّة الرّاديكاليّة في الطّرف الأيسر، والأحزاب المناهضة للهجرة في الطّرف الأيمن. لقد أصبح دونالد ترامب رئيسًا للولايات المتّحدة في الانتخابات الرئاسيّة الأمريكيّة لعام 2016 وهي الانتخابات التي شهدت استقطابًا شديدًا للنّاخبين، وأجد أنّ تمكّنهُ من حشد الدّعم الهائل، ونجاحه في الاستقطاب، بما يسّر له الفوز بأغلبيّة انتخابيّة، عائدٌ بنسبة كبيرة إلى نشر نظريّات المؤامرة غير العقلانيّة، من قبيل أنّ تغيّر المناخ خدعةٌ ارتكبها الصّينيّون، أو أنّ هناك مؤامرة لإخفاء الدليل على أنّ أوباما لم يولد في الولايات المتّحدة، وهي أمور مذهلة ولا تخلو من إثارة. إنّ ما يعتقده النّاس هو ما يحدّد سلوكهم؛ وإذا روّج مرشّح سياسيّ لنظريّات المؤامرة الّتي يجدها كثير من النّاس جذّابة ومعقولة، فإنّ التّصويت لهذا المرشّح يصبح خيارًا قابلًا للتّطبيق.

يمكنُ لنظريّات المؤامرة أحيانًا أن تحدّد الخيارات الأكثر تأثيرًا في أعلى مستوى سياسيّ. ففي العام 2002، قال الرّئيس السابق جورج دبليو بوش حرفيًّا: «في الوقت الحاليّ، يقوم العراق بتوسيع المرافق الّتي كانت تُستخدم لإنتاج أسلحة بيولوجيّة وتطويرها». اقتباس آخر مشابه (من عام 2003): «المعلومات الاستخباراتيّة التي جمعتها هذه الحكومة وحكومات أخرى لا تدع مجالًا للشكّ في أنّ النّظام العراقي لا يزال يمتلك بعضًا من أكثر الأسلحة فتكًا على الإطلاق

ويخفيها». قارن هذه الاقتباسات بالمكوّنات الخمسة الرّئيسيّة لنظريّات المؤامرة: هناك **أنماط** (هناك تهديد والسّببُ في ذلكَ العراق)، **عامل** (العراق يفعل ذلك عن قصد)، **تحالف**(صدام حسين وإدارته السّياسيّة)، **عدائيّة** (العراق لا يطوّرُ هذه الأسلحة بدافع الصّداقة)، **والتّكتّم المستمرّ** (العراق يخفي هذه الأسلحة، ونحن في الحقيقة لم نرها قطّ). إنّ الاعتقاد بأنّ العراق يخفي أسلحة دمار شامل يتناسب مع أيّ تعريف لنظريّات المؤامرة الّتي أعرفها - وكما أثبتَ لنا التّاريخ، كان ذلكَ الاعتقادُ خاطئًا. الاستنتاج غير المريح هو أنّ الدّعم الوطنيّ والدّولي الذي جمعه بوش لشنّ الحرب على العراق كان مبنيًّا على نظريّة مؤامرة باطلة. هذا ليس شذوذًا بأيّ حال من الأحوال: فقد لاحظ المؤرّخون أنّ جلّ الحروب التي تمّ خوضها في القرون القليلة الماضية تضمّنت نظريّات مؤامرة واسعة الانتشار حول مجموعة معادية تقفُ على جانبَي الصّراع[12].

غالبًا ما تكون نظريّات المؤامرة هواية غير ضارّة. ولكنّها في مقابلِ ذلك قادرة على أن تلحقَ الضّررَ بالإنسان، وأن تحفّز الجانب العدوانيّ تجاه أشخاص أو مجموعات أخرى، وأن تقوّضَ الجهود اللازمة لحلّ المشاكل الحقيقيّة الّتي تشكّل تهديدًا لوجودنا، من قبيل فكرة أنّ نظريّات مؤامرة تغيّر المناخ، وهي تمتلكُ أيضًا قوّة وسطوة في تحديد طبيعة القادة السياسيّين الذين تمّ التّصويتُ لصالحهم، وغيرهم من الأمثلة. يمكن أن تكون هناك تأثيرات مفيدة لنظريّات المؤامرة أيضًا، ففي بعض الأحيان: يمكن لنظريّات المؤامرة أن تضفي شفافيّة أفضلَ على القادة السّياسيّين وفي وسعها أن تفتح نقاشًا داخل المجتمع حول مواضيع مهمّة عديدة. لكنّ معظم تأثيرات نظريّات المؤامرة ضارّ للمؤمنين بها ولبيئتهم الاجتماعيّة وللمجتمع بصفةٍ عامّة. يشير هذا إلى سبب وجيهٍ لدراسة هذه المعتقدات: قد يساعد فهم الجذور النفسيّة لنظريات المؤامرة في النهاية على إيجاد طرق لجعل

.(12)Cowburn, A. (2016, June 21). EU referendum: Poll reveals third of Leave voters believe MI5 conspiring with government to stop Brexit. Independent.

المواطنين يتعاملونَ معها بشكلٍ نقديّ أكثر وهو أمر مهمّ لنظريات المؤامرة التي من غير المرجّح أن تكون صحيحة.

هل الإيمان بنظريّات المؤامرة أمرٌ مرضيّ؟

غالبًا ما تترك محرّكات طائرات الرّكّاب آثارًا كثيفةً في شكل خيوطٍ بيضاء. تحدث هذه المسارات الشّبيهة بالغيوم في السّماء بسبب جزيئات الماء في غازات العادم، سرعان ما تتحوّل إلى بلّورات ثلجيّة بسبب درجات الحرارة المنخفضة على ارتفاعات عالية. لكنّ ما يسمّى بنظريّات مؤامرة الكيمتريل «chemtrail» تؤمنُ بوجود مخطّط شرّير وراء مسارات التكثيف هذه. وفقًا لنظريّات مؤامرة **الكيمتريل** chemtrail، فإنّ مسارات تكثيف الطّائرات هي في الواقع موادّ كيميائيّة أو بيولوجيّة تصدرُ عن مؤامرة شرّيرة – عادة من قبل الحكومة – تستهدفُ السّكّان وتسعى إلى التأثير في سلوكيّاتهم. وعلى سبيل المثال، من الأفكارِ الشائعة التي تحملها هذه النظريّة هو أنّ تلك الموادّ الكيميائيّة تحافظ على وداعة السّكّان وانقيادهم للأجهزة الحكوميّة، وبالنتيجة تسمح للحكومة بتنفيذ خططها الشّرّيرة دون أن تكون مجبرة على الخوف من ثورة تصدرُ عن حشدٍ غاضب، ومناهضٍ حقًّا لسياساتها.

ويمكنُ الجزمُ بالقول إنّ نظريّة المؤامرة هذه غير منطقيّة. فإذا كانت طائرات الرّكاب مجهّزة بالفعل بتكنولوجيّا لرشّ الموادّ الكيميائيّة، فإنّ فنّيي الخطوط الجوّية الذين يقومون بفحص روتينيّ على متن الطّائرة سيكتشفون ذلك بسهولة. علاوة على هذا، ستكتشف القياسات العلميّة بسرعة وجود موادّ كيميائيّة غريبة أو غير معروفة أو ضارّة في الغلاف الجويّ وستكونُ قادرة أيضًا على تعقّب مصدر هذه المواد الكيميائيّة. ولم يحدث في الواقع شيء من هذا. هل يجب أن نعتبر الإيمان بنظريّة المؤامرة اللّاعقلانية مرضًا؟ بالتّأكيد قد يكون من المغري أن نرفض المؤمنين بمؤامرة الكيمتريل ونعتبرهم مرضى عقليّين. لكنّ الأدلّة تشير إلى خلاف ذلك.

أو، دعني أضعها على هذا النّحو: إذا كان الإيمان بنظريّة مؤامرة سخيفة نسبيًّا يشير إلى علم الأمراض، فسنعيش في مجتمع شديد المرض. في عيّنة تمثيليّة أجريت في هولندا في عام 2009، آمن 3 ٪ من السّكّان الهولنديّين بمؤامرة الكيمتريل.[13] قد تبدو هذه النّسبة كبيرة في بلدٍ عددُ سكّانهِ يبلغ 17 مليون نسمة تقريبًا. يصعب تفسير هذه الأرقام من خلال علم الأمراض. فقد تبنّت نظريّةَ مؤامرة الكيمتريل شخصيّاتٌ عامّةٌ ونافذة لا يمكن وسمها بالمرض العقليّ. كان أحد المؤمنين بنظريّات مؤامرة الكيمتريل هو المغنّي العبقريّ برنس-Prince. كان يؤمن بنوع مختلف من نظريّة مؤامرة الكيمتريل، فقد انساق خلف فكرة مفادها أنّ هذه الموادّ الكيميائيّة تُرَشُّ فوق الأحياء التي يسكنها أصحاب البشرة السّوداء، على وجه التّحديد، لإلحاق الأذى بالمواطنين الأمريكيّين من أصل أفريقيّ ودفعهم إلى الاعتداء بعضهم على بعض. في مقابلة مع تافيس سمايلي في عام 2009، أوضح برنس كيف نشأ في مجتمع أسود عندما كان طفلًا، كان كثيرًا ما يرى مسارات التكثيف هذه في السّماء، ثمّ فشل في فهم سبب تحوّل الناس من حوله فجأة إلى أعداء. في وقت لاحق، بدأ في رؤية علاقة سببيّة (أنماط) بين مسارات الطّائرة والعدوانيّة التي بدأت في الظّهور. في النّهاية، أطلقَ برنس أغنية «Dreamer» وفيها تناولَ مؤامرة الكيمتريل، وهي من كلماتهِ:

ادعُ اللهّ أن تمرَّ بك صفّارات الإنذار في اللّيل؟

بينما تحلّقُ الهليكوبتر فتزداد الرؤيةُ عمقًا،

هل تعتقد أنّهم يرشّون موادّ كيميائيّة فوق المدينة أثناء نومنا؟

وبطبيعة الحال، فإنّ الوفاة غير المتوقّعة لبرنس أدّت أيضًا إلى ولادة الكثير من نظريّات المؤامرة. أكّد الكثير منهم أنّ برنس قُتل لقوله الحقيقة بشأن الكيمتريل.

.(13)Crocker, J., Luhtanen, R., Broadnax, S., & Blaine, B. E. (1999). Belief in U.S. government conspiracies against Blacks among Black and White college students: Powerlessness or system blame? Personality and Social Psychology Bulletin, 25 , 941–953.

إذا كان ثمّة عدد كبير من النّاس يؤمنون بنظريّة سخيفة نسبيًّا مثل الكيمتريل، فما مدى شيوع نظريّات المؤامرة السّائدة، مثل تلك المتعلّقة بصناعة الأدوية أو هجمات الحادي عشر من سبتمبر؟ في عيّنة تمثيليّة على المستوى الوطنيّ من السّكان البالغين في الولايات المتّحدة، طُلب من المواطنين الإشارة إلى مدى موافقتهم على العبارة التّالية: «تمنع إدارة الغذاء والدّواء الجمهور عمدًا من الحصول على علاجات طبيعيّة للسّرطان والأمراض الأخرى بسبب الضغط الذي تمارسهُ شركات الأدوية». هذا بيان لا يمكننا استبعاده بدرجة الثقة ذاتها التي تعاملنا بها مع مؤامرة الكيمتريل chemtrails، لكنّ هذا البيان لا يزال يحملُ فرضيّة عقليّة شرّيرة بشكل استثنائيّ بين عدد كبير من العاملين في مجال الطبّ، بما في ذلك الآلاف من العلماء المستقلّين والمتخصّصين في الطّب حول العالم، أولئك الذين يعرفون القليل من الأشياء حول الجدوى الفعليّة لهذه العلاجات الطبيعيّة ويمكن التحدّث عنها بحرّيّة. كم عدد الأشخاص الذين آمنوا بهذا البيان؟ كما اتّضح، وافق 37٪ على هذا البيان، بينما كان 31٪ غير متأكّدين (لا أوافق ولا أعارض). لم يوافق سوى 32٪ من المتجوبين[14]. في ما يتعلّق بضربات الحادي عشر من سبتمبر، كشف استطلاع للرّأي أجرته مؤسّسة زغبي في عام 2004 أنّ 49٪ من سكّان مدينة نيويورك يعتقدون أنّ مسؤولي الحكومة الأمريكيّة كانوا على علمٍ مسبقٍ بالهجمات وتعمّدوا الفشل في التّحرّك؛ وفي استطلاع أُجري في عام 2006 وشاركَ فيه جزءٌ كبير من جميع شرائح المجتمع الأمريكيّ، اعتقد 36٪ أنّ المسؤولين الأمريكيّين إمّا أنّهم نفّذوا الهجمات أو أنّهم لم يفعلوا شيئًا لوقفها[15].

إنَّ نظريات المؤامرة منتشرة على نطاق واسع جدًّا بشكلٍ لا يمكن معه اعتبار

.(14) Darwin, H., Neave, N., & Holmes, J. (2011). Belief in conspiracy theories: The role of paranormal belief, paranoid ideation and schizotypy. Personality and Individual Differences, 50 , 1289–1293.

.(15)Dieguez, S., Wagner-Egger, P., &Gauvrit, N. (2015). Nothing happens by accident, or does it? A low prior for randomness does not explain belief in conspiracy theories. Psychological Science, 26 , 1762–1770.

الاعتقاد بها أمرًا مرضيًّا. إنّها جزء مشترك من فهم النّاس للعالم، تمامًا مثل أشكال المعتقدات الأخرى. يعتقد مواطنون كثيرون أنّه من الممكن التنبّؤ بالمستقبل من خلال الخطوط الموجودة في يد المرء، أو أنّ نجاح علاقة رومانسيّة حديثة يعتمد على مدى تطابق علامات البرجَين الخاصّين بالشريكين. لئن كانت أفكار العصر الجديد هذه غير قابلة للتّصديق إلى حدّ كبير في ضوء الأدلّة العلميّة أيضًا، فإن الإيمان بهذه الأفكار أيضًا لا يعتبر أمرًا مرضيًّا. يؤيّد المواطنون العاديّون، في جميع فروع المجتمع، مجموعة متنوّعة من المعتقدات غير المعقولة، تشمل بعض نظريّات المؤامرة. عند محاولة فهم سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة، فإنّ نقطة الانطلاق الخاطئة هي علم النّفس الإكلينيكيّ (أي دراسة المرض العقليّ). بدلًا من ذلك، فإنّ سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة هي مجال علم النّفس الاجتماعيّ: دراسة كيفَ يفكّر المواطنون العاديّون في حياتهم اليوميّة وكيف يشعرون ويتصرّفون.

متى يؤمنُ البشر بنظريّات المؤامرة

«كيف تفسّر حقيقة أنّ نظريات المؤامرة آخذة في الازدياد في الوقت الحاضر؟» هذا سؤال أتلقّاهُ كثيرًا وبشكل خاص من الطلّاب أو من الحضور بعد إلقاء كلّ محاضرة، أو من الصّحفيّين الّذين يكتبون عن نظريّات المؤامرة. غالبًا ما يتفاجأ النّاسُ بإجابتي: لا أعتقد أنّ نظريات المؤامرة آخذة في الازدياد. من المؤكّد أنّ هناك بعض التّراجع في نظريّات المؤامرة على مرّ العقود. وإن كنت أقرّ بهذا المنحى التّصاعديّ لتلك النّظريّات، في 2016، بالتّزامن مع نشر دونالد ترامب لنظريّات المؤامرة خلال الانتخابات الأمريكيّة بأكملها، ومع تصويت المملكة المتّحدة لصالح «خروج بريطانيا من الاتّحاد الأوروبّي»، فقد حظيت نظريّات المؤامرة باهتمام أكبر ممّا كانت عليه في العام 2006. لكنّني أعترض على فكرة ولادة المزيد من نظريّات المؤامرة على المدى الطّويل، واطّرادها في المرحلة الرّاهنة، مقارنة بما كان عليه أمرها في أزمنة ماضية، فالنّاس، ليسوا أكثر إيمانًا بمن سبقهم، خلال العقود الماضية من تاريخ البشريّة. ولا وجود لأدلّة علميّة تقطع بهذا الزّعم أو تؤيّده.

ثمّة دراسة أعتبرها من أهمّ الدراسات التي أجريت حولَ نظريّة المؤامرة، وبالتأكيد واحدة من أكثر الدراسات التي تطلّبت مجهودًا كبيرًا، وهي دراسة أنجزها اثنان من علماء السّياسة من جامعة ميامي بمساعدة فريق من مساعدي البحوث المتربّصين، حلّلَا خلالها الرّسائل المنشورة لمواطنين أمريكيّين في شيكاغو

تريبيون ونيويورك تايمز[16]. امتدّت الرّسائل على فترة زمنية قدرها 120 عامًا، تراوحت بين 1890 و2010. صُنِّفت رسائل كلّ عام بشكل متساوٍ تقريبًا بنظام الحروف، واختيرت الحروف المراد تحليلها عشوائيًا من بين جميع الرّسائل الّتي نُشِرت خلال هذه الفترة. كان الاهتمام الأساسيّ للباحثين ينطوي على سؤالٍ ما إذا كانت هذه الرّسائل تحتوي على نظريّات مؤامرتيّة. في النهاية، درس هؤلاء الباحثون واختاروا الرّسائل التي احتوت على مضمونٍ تآمري-Conspiratorial، ما مجموعُه 104803 رسالة منشورة.

مثلما هو متوقّع، هناك تباين عبر السّنوات في مدى احتواء الرّسائل على محتوى تآمريّ؛ علاوةً على ذلك، في فترات زمنيّة مختلفة كتب الناس عن نظريّات المؤامرة المختلفة. لكن بمرور الوقت، لم يكن هناك اتّجاه تصاعديّ في نسبة الرّسائل التي تحتوي على نظريّات تآمريّة. في الواقع، كانت هناك فترتان زمنيّتان بدا أنّهما تبرزان في تكرار المحتوى التآمريّ، لكن لم يكونا كلاهما في الألفيّة الجديدة. تزامنت الفترة الزمنيّة الأولى مع وجودِ دليل على زيادة المحتوى التآمريّ منذُ بداية عام 1900، خلال ذروة الثورة الصّناعيّة الثانية. أمّا الفترة الزمنيّة الثانية فقد تزامنت مع وجود دليل على زيادة المحتوى التآمريّ في أواخر الأربعينيّات وأوائل الخمسينيّات من القرن الماضي: تحديدًا في بداية الحرب الباردة. من الواضح أنّ هذه البيانات تتعارض مع التأكيدات التي تشيرُ إلى أنّ نظريّات المؤامرة آخذة في الازدياد.

للدّراسة هنات، قد يجعلها البعض مطيّة للاستنقاص من قيمتها، ومن ذلك أن يذهب البعض إلى أنّ الرّسائل منتقاة، بما يخدم غاية المحرّر، وإذا كنّا لا ننكر مثل هذا الزّعم فإنّ ذلك يجب ألّا يحجب بعض القرائن الواقعيّة، والموضوعيّة، فعدد الرّسائل لا يستهان به، وقد نُشِرت في صحيفتين مختلفتين، وشارك في انتقائها عددٌ

.(16)Douglas, K. M., Sutton, R. M., Callan, M. J., Dawtry, R. J., & Harvey, A. J. (2016). Someone is pulling the strings: Hypersensitive agency detection and belief in conspiracy theories. Thinking and Reasoning, 22 , 57–77.

كبير من المحرّرين، في أزمنة مختلفة، على مدى أكثر من قرن، وعليه فمن الضّروريّ أن نجد في هذه البيانات ما يؤيّد الرّأي القائل إنّ نظريّات المؤامرة آخذة في الازدياد في عصرنا الحديث. وإذا كان أصحاب المذهب يردّون الأمر إلى الأثر البليغ لتقنيّات الاتّصال الرّقميّ، في جعلها المواطنين أكثر عرضة لنظريّات المؤامرة، فقد كان من الضّروريّ أن نلمح ذلك في الفترة الممتدّة، من أوائل التّسعينيّات، إلى سنة 2010، ولكنّ البيانات لا تشير إلى شيء من ذلك.

تتناقض بيانات أخرى مع فكرة أنّ النّاس في الوقت الحاضر أكثر تشكّكًا في أصحاب السّلطة ممّا كانوا عليه منذ حوالي 30 عامًا. فقد نظرت إحدى الدراسات في مدى ثقة الناس ورضاهم عن السّياسيّين في مختلف دول الاتّحاد الأوروبيّ بمرور الوقت باستخدام اليوروبارومير[17]. تكتسي البيانات المتعلّقة بالرضا، على وجه الخصوص، أهمّيةً كبرى، فهي تغطّي المرحلة الفاصلة بينَ الفترة الطّويلة التي حصلَ فيها المواطنون العاديّون على الإنترنت ووسائل التّواصل الاجتماعيّ والهواتف الذّكيّة (1974) وحتّى الوقت الّذي كانت فيه هذه التقنيّات جزءًا طبيعيًّا من الحياة اليوميّة (2012) (بيانات الثقة أقلّ دلالةً، إذ غطّت الفترة الزّمنية بين 1997 إلى 2012، رغمَ أنّهُ من المهمّ أيضًا الإشارة إلى أنّهُ لم يظهر في هذه البيانات أيضًا أيّ اتّجاه يشير إلى تراجع الثقة مع مرور الوقت). على الرغم من أنّ عدم الرضا عن السياسيّين لا يختلف عن الإيمان بنظريّة المؤامرة السياسيّة، فمن المرجّح جدًّا أن يكون أحدهما مشخّصًا للآخر: فالنّاس غير راضين عن السياسيّين إذا كانوا يعتقدون أنّ هؤلاء السّياسيّين متآمرون (والعكس صحيح). مرّة أخرى، كشفت النّتائج عن تذبذب في مدى رضا المواطنين أو عدم رضاهم عن السّياسيّين، لكن لم يكن هناك اتّجاه يشير إلى انخفاض مستويات الرّضا مع تقدّم الوقت. علاوةً على ذلك، كان متوسّط مستوى الرّضا الذي عبّر عنه المواطنون عن

(17)سلسلة من الدراسات الاستقصائيّة التي تجري بانتظام نيابة عن المفوضيّة الأوروبيّة منذ العام 1973. تنتج تقارير الرأي العام حول بعض المسائل المتعلّقة بدول الاتحاد الأوروبي. تنشر نتائج يوروبارومير من قبل قطاع الرأي العام من المفوضيّة الأوروبية - المديرية العامة للاتصالات. (المترجم)

السّياسيّين على مرّ السنين منخفضًا جدًّا. وهكذا سيكون من الخطإ الاعتقاد بأنّ المواطنين في الوقت الحاضر أقلّ رضا عن السّياسيين من أيّ وقت مضى. في السّبعينيّات، كان المواطنون أيضًا غير راضين إلى حدّ كبيرٍ عن السّياسيّين، وهي درجة الرّضا نفسها اليوم. وعلى ما يبدو، إلى حدّ مماثلٍ تقريبًا كما هو الحال في الوقت الحاضر.

قد يبدو هذا أمرًا غير بديهيّ. ففي النّهاية، تنتشرُ نظريّات المؤامرة في كلّ مكان على الإنترنت وعلى وسائل التواصل الاجتماعيّ، وهذه الأدوات الحديثة هي الوسائل الأساسيّة التي من خلالها يتعرّف الناس على نظريّات المؤامرة أو يتواصلون مع النظريات المؤامراتيّة الأخرى. لاحظ أنّني لا أقول إنّ تقنيات المعلومات الحديثة ليس لها تأثيرٌ. لكن هناك فرق بين سرعة النشر ونسبة المواطنين الذين يؤمنون بنظريّات المؤامرة. أرى أنَّ تقنيات الاتّصال الحديثة هذه تزيد من سرعة تشرّبِ النّاس لنظريّات المؤامرة ولكنّها لا تزيد من نسبة المواطنين الّذين يؤمنون بها. في الوقت الذي لم تكن فيه الإنترنت أو وسائل التّواصل الاجتماعيّ تحت تصرّف المواطنين، كان من المرجّح أن تنتشر نظريّات المؤامرة عبر قنوات اتّصال مختلفة وبطيئة، كالمشافهة مثلًا، لكنّ نظريّات المؤامرة الرئيسيّة ستنتشر مع ذلك وتصل في النّهاية إلى معظم النّاس.

من المؤكّد أنّ نظريّات المؤامرة تنتشر بسرعةٍ في الوقت الحاضر. في 2 ديسمبر 2015، وقعت حوادث إطلاق النّار في سان برناردينو (كاليفورنيا) في وقت متأخّر من الصّباح. قتل زوجان 14 شخصًا وأصابا 22 آخرين ببنادق نصف آليّة. وبعد إطلاق النّار، بدأت عمليّة مطاردة استمرّت حوالي أربع ساعات، قُتل بعدها المُجرِميْن. مع بدء الحدث، كان الوقتُ مساءً في أمستردام، حيث كنت أشاهد تغطية حيّة لهذا الحدث على شاشة التلفزيون رفقة زوجتي. بعد حوالي ساعتين من بدء إطلاق النار، أي قبل ساعتين من مقتل المجرمين، لم أتمكّن من مقاومة إغراءات البحث وفتحتُ محرّك غوغل باحثا عن«مؤامرة سان برناردينو».

ظهرت على الفور نظريّات مؤامرة مختلفة تشير إلى أنّ إطلاق النار كان عمليّة خاطئة. يمكننا قراءة نظريّات المؤامرة حول هذا الهجوم الإرهابيّ في وقتٍ مازالت وقائعه قيد التّحقيق! مع ذلك، ربّما وصلت إلينا نظريّات المؤامرة هذه أيضًا دون تكنولوجيا الاتّصالات الحديثة، في النهاية، أو بدلًا من ذلك، ربّما لم نسمع في أمستردام عن إطلاق النار بسان برناردينو في المقام الأوّل، وكنّا سنركّز بدلًا من ذلك على الأحداث المحلّيّة المؤلمة بما من شأنه أن يفتح المجال على نظريّات تآمريّة محلّيّة. تلعب تقنيات المعلومات الحديثة دورًا في نظريّات المؤامرة، ولكن عندما نبحث عن إجاباتٍ حول سبب إيمانِ النّاس بها أو عدم إيمانهم، فسنجدُ أنّ هذه التّقنيات ليست إلّا جزءًا من لغزٍ أكبر بكثير.

بدلًا من البحث عن تفسير في «روح العصر-Zeitgeist» أو التكنولوجيا، يمكن العثور على تفسير أفضل وأكثر شمولًا لمعتقدات المؤامرة في علم النّفس. أرى أنّ نظريّات المؤامرة متجذّرة في حالة نفسيّة ذاتيّة متأصّلة في الحالة الإنسانيّة، بشكل فطريّ، فنظريّات المؤامرة هي ردّ فعل طبيعيّ ينشأ عن المواقف الاجتماعيّة التي تثير مشاعر الخوف وعدم اليقين. لأكون دقيقًا أكثر، كلّما شعر النّاس بمثل هذه المشاعر البغيضة بقوّة، ازداد احتمال إلقاء اللّوم على مجموعاتٍ مختلفة. نتيجة لذلك، يمكننا أن نتوقّع بروز نظريّات مؤامرة خاصّة في أعقاب الأحداث المجتمعيّة المؤلمة.

نظريّات المؤامرة وحالات الأزمات المجتمعيّة

يواجه النّاس بانتظام أزمات مُجتمعيّة متنوّعة ونقصدُ بالأزمات المجتمعيّة، التّغيّرات السّريعة التي تطرأ على المجتمع والتي يمكن أن تهدّد رفاهية المواطنين أو أسلوب حياتهم أو حتّى وجودهم. ومن أمثلة هذه الأزمات الهجمات الإرهابيّة، والكوارث الطبيعيّة، والحروب، والثورات، والأزمات الاقتصاديّة والماليّة، والأوبئة المرضيّة، وما شابه ذلك. تؤدّي حالات الأزمات هذه بشكل شبه دائم إلى

ولادة نظريّات مؤامراتيّة. يوجد في التّاريخ الحديث مثالان رئيسيّان للأزمات المفاجئة وغير المتوقّعة التي ألهمت نظريّات المؤامرة على نطاق واسع، وهما الهجمات الإرهابيّة في الحادي عشر من سبتمبر واغتيال جون إف كينيدي. فقد شكّل الحدثان صدمة لدى المجتمع، ورسّخا مشاعر قويّة من الخوف وعدم اليقين لدى النّاس، والشعور بأنّ العالم لن يعود مرّة أخرى كما كان. كثير من النّاس لديهم «ذكريات حيّة» عن هذه الأحداث، فهم لا يزالون يتذكّرون بوضوح ردّ فعلهم وهم يتلقّون الأخبار لأوّل مرة. وفضلًا عن ذلك فقد أدّى كلا الحدثين إلى بروز نظريّات مؤامراتيّة لا تزال تؤيّدها حتّى اليوم مجموعات كبيرة من المواطنين، ممّا يعتبره اليوم كثيرون «حقائق» تاريخيّة.

يمكن أيضًا اعتبار الطفرتين اللتين ظهرتا في المحتوى التآمريّ في الرّسائل المرسلة إلى نيويورك تايمز وشيكاغو تريبيون، حالات أزمة نجمت أساسًا عن مشاعر الخوف وعدم اليقين. لقد تزامن الارتفاع الأوّل للمحتوى التّآمريّ مع تزايد معتقدات المؤامرة خلال الثورة الصناعيّة الثانية. خلال هذه الفترة الزّمنيّة، بدأت الشّركات الكبرى في الظّهور، وتغيّرت هياكل السّلطة داخل المجتمع بشكل كبير. لقد كانت تلك فترةَ التّقدّم التكنولوجيّ السّريع، والتّطور السّريع للبنية التّحتيّة الجديدة، والإنتاج الضّخم الفعّال، لسلع كثيرة.

على الرّغم من تحسّن الظّروف المعيشيّة للكثير من المواطنين، فإنّ شبح البطالة، كان يخيّم على العمّال المنتظمين، ويزيد من قلقهم، إذ أصبحت وظائف عديدةٌ بلا قيمة بعد استبدال اليد العاملة بالآلات. من المحتمل جدًّا أن يكون هؤلاء العمّال - الذين شكّلوا جزءًا كبيرًا من السكّان - قد عانوا من حالة عدم يقين كبيرة بشأن مستقبلهم، ممّا أدّى إلى نشوء مجموعة من نظريّات المؤامرة. تعودُ الطفرة الثانية في زيادة معتقدات المؤامرة إلى بداية الحرب الباردة. فبعد فترة وجيزة من الحرب العالميّة الثانية، خشي مواطنون كثيرون من احتمال اندلاع حرب كبرى جديدة، وكان تهديد الشيوعيّة يلوح في الأفق. نتيجة لذلك، كان كثير من المواطنين حذرين

من احتمال ارتباط أشخاص أو مؤسّسات أو مجموعات معيّنة بالشيوعيّة. هذه «المكّارثية» - التي سمّيت على اسم السناتور جوزيف مكارثي الذي كان شخصيّة فاعلة في تأجيج الخوف من الشّيوعيّة، وذلك بنشر مزاعم باطلة، توهم النّاسَ بمؤامرات شيوعيّة تحاك لهم، ممّا أثّر على نظرة النّاس إلى الشّيوعيّين، فصاروا حذرين في التّعامل معهم ومنزعجين من حضورهم، ففقدوا بذلكَ سمعتهم بين النّاس، ومُنعوا من العمل، وتمّ التّضييق عليهم وعلى المتعاطفين معهم، عبر الإقصاء الممنهج، والاعتقالات.

إنّ الأمثلة المثبتة للصّلة القائمة بين حالات الأزمات المجتمعيّة ونظريّات المؤامرة لا تنحصر بحدود القرن الماضي، إذ نجد في العصور الوسطى أدلّةً على ذلك لا تقلّ قيمة. لم تكن العلوم الطبّيّة متقدّمة، آنذاك، كما هو الحال في عصرنا، وكان من الشائع أن يموت الأطفال بأوبئة صار من الممكن اليوم اتّقاؤها عبر اللّقاحات. فلم يكن هناك فهم للفيروسات أو للبكتيريا وما للنّظافة الشّخصيّة من أهمّيّة في هذا الصّدد، ولم تُكتَشف المضادّات الحيويّة بعدُ. ونتيجة لذلك، كانت الأوبئة المرضيّة متكرّرة، تحصد الأرواح، لكنّ الناس لم يتمكّنوا من فهم كيفيّة نشوء هذه الأمراض تمامًا. فألقوا باللوم في شأن هذه الأوبئة على أشخاص أو مجموعات في المجتمع. ومن بين المعتقدات الشائعة أنّ الكثير من الشابّات كنّ في الواقع ساحرات تآمرن مع الشيطان لفرض الأذى على السّكّان مثل الأوبئة أو فشل المحاصيل. ونتيجة لهذه المعتقدات - الخرافيّة والتآمريّة على حدّ سواء - حُرقت نساء بريئات كثيرات وهنّ أحياء. وكان المجتمع اليهوديّ هدفًا متكرّرًا لنظريّات المؤامرة التي تشير إلى أنّ له دورًا سببيًّا في حالات الأزمات مثل تفشّي الأمراض أو النّكسات خلال الحروب الصّليبيّة، ممّا أدّى إلى اضطهاد واسع النّطاق لليهود في أوروبا خلال العصور الوسطى[18].

---

(18)Eisenberger, N. I., Lieberman, M. D., & Williams, K. D. (2003). Does rejection hurt? A fMRI study of social exclusion. Science, 302 , 290–292.

هذه مجرّد أمثلة لمبدإٍ أكثر عموميّة: في الأوقات الصّعبة الّتي تثير الخوف وعدم اليقين بين مجموعات كبيرة من الناس، تزدهر نظريّات المؤامرة. يبدأ الناس في إلقاء اللوم على الأشخاص أو المجموعات التي شعروا بعدم الارتياح لها في البداية ويخرجون بنظريّات تشرح الضّرر الّذي يتعرّضون له من خلال مؤامرة حاقدة. نتيجة لذلك، ستزداد نظريّات المؤامرة بين السّكّان بمجرّد انتشار القلق بشأن هجوم إرهابيّ كبير، أو كارثة طبيعيّة، أو أزمة اقتصاديّة أو ماليّة، أو حرب، أو ثورة، وما إلى ذلك. ويمكن للأحداث التي لا تشكّل تهديدًا مباشرًا لحياة النّاس أن تحفّز على نظريّات المؤامرة، مادامت تجذب انتباه جمهور كبير وتسبّب توتّرًا بين الكثير من المواطنين، كالموت المباغت لأحد المشاهير على سبيل المثال.

في الواقع، حتّى حالات الأزمات الخياليّة يمكن أن تتسبّب في نشوء معتقدات تآمريّة. ومن الأمثلة على ذلك نظريّة المؤامرة القائلة إنّ الهبوط على سطح القمر عام 1969 تمّ تصويره في أستوديو تلفزيونيّ. قد يفسّر المرء أنّ نظريات المؤامرة هذه لم تكن ردّ فعل على حالة أزمة «موضوعيّة»، لقد كانت ردّ فعل على حدث إيجابيّ، حقّقت عبره البشريّة فتحا علميّا خارقا، لكنّ الشخص الذي يعتقد أنّ الحكومة تخدع الأمّة بشكل مستمرّ وعن عمدٍ، يرى أنّ الأمّة في أزمة. بعبارة أخرى، كثير من النّاس لديهم معتقدات تآمريّة عامّة حول الحكومة، وهذه المعتقدات في حدّ ذاتها تزعجهم، ممّا يؤدّي إلى مزيد التّنظير لنظريّة المؤامرة. هذه نظرة عامّة سأعود إليها في فصول أخرى: الإيمان بنظريّة مؤامرة واحدة يعزّزُ فرضيّة الاعتقادِ بنظريّات مؤامراتيّة أخرى. الرّاجح في هذه الحالة أنّ المواطنين الذين يحملون نظريّات مؤامرة حول الحكومة مع أيّ عملٍ تقوم به - بما في ذلك نصب تذكاريّ لإنجاز علميّ مثل الهبوط على القمر - سيتعاملون بشكٍّ، وبنظريّات مؤامرتيّة إضافيّة.

من أجل فهم سبب ارتباط مشاعر عدم اليقين والخوف بنظريّات المؤامرة، نحتاج إلى تحديد كيفيّة تعامل الناس مع هذه المشاعر السّلبيّة. الاستجابة الأكثر شيوعًا للخوف وعدم اليقين هي توخّي اليقظة: يبدأ النّاس في الاهتمام عن كثب ببيئتهم، ويبدؤون في اجترار الأفكار، ويحاولون تحديد الأسباب الكامنة خلفَ مشاعرهم السّلبيّة. وهكذا فإنّ الخوف وعدم اليقين يقودان النّاس إلى محاولة فهم بيئتهم المادّيّة والاجتماعيّة[19]. مثل هذا الإدراك المتزايد هو استجابة تلقائيّة تتجذّر في غريزة الحفاظ على الذّات. مشاعر الخوف وعدم اليقين تشير إلى وجود تهديدات وشيكة في البيئة. وهكذا، فإنّ الاهتمام الشّديد بهذه البيئة يزيد من فرص الكائن الحيّ في التعامل بفعاليّة مع هذه التّهديدات وفرص البقاء على قيد الحياة.

باعتبارِه جزءًا من غريزة الحفاظ على الذات، لاحظ علماء النّفس التّطوريّ أنّ النّاس يميلون إلى تجنّب المخاطر في مواجهة المواقف غير المؤكّدة الّتي قد تكون مهدّدة[20]. تخيّل مثلًا أنّك رأيتَ شيئًا طويلًا على العشب، وليس من الواضح ما إذا كان الكائن عصًا أم ثعبانًا. في مثل هذه الحالات، من الطّبيعيّ أن يتوخّى النّاس الحذر وأن يفترضوا أنّ الشيء هو ثعبان. ليس للأخطاء عواقب متساوية في هذه الحالة: قد يموت الشخص الذي يلتقط الشّيء على افتراض أنّه عصًا إذا اتّضح أنّه ثعبان سامّ. لكن بالنّسبة إلى شخص يفترض أنّ الشيء هو ثعبان ويتصرّف نتيجة لذلك بحذرٍ، فإنّه لا يهمّ ما إذا كان هذا الحكم صحيحًا أم لا. إذا كان المرء مخطئًا وكان الثّعبان في الواقع عصا، فيمكن له أن يسلك منعطفًا غير ضروريّ، أمّا البقيّة فلا يحدث لهم أيّ ضرر حقيقيّ.

.(19)Falk, R., &Konold, C. (1997). Making sense of randomness: Implicit encoding as a basis for judgment. Psychological Review, 104 , 301–318.

.(20) Galinsky, A. D., & Moskowitz, G. B. (2000). Perspective-taking: Decreasing stereotype expression, stereotype accessibility, and in-group favoritism. Journal of Personality and Social Psychology, 78 , 708–724.

تؤدّي مشاعر عدم اليقين إلى فهم الموقف الذي يجدون أنفسهم إزاءهُ، وهذا الشعور العقليّ هو ما يجعلُ فرضيّة ما هو أسوأ أمرًا طبيعيًّا. يتعلّق هذا أيضًا بكيفيّة إدراك النّاس للآخرين. من النتائج الشّائعة في علم النّفس «أسطورة المصلحة الذّاتيّة myth of self-interest». للتّوضيح فقط، لا يعني هذا المصطلح أنّ الاهتمام بالذّات مجرّد أسطورة؛ طبعًا يمكن للنّاس أن يكونوا أنانيّين من وقت إلى آخر، ولكنّ هذا المصطلحَ يعني أنّ الناس يبالغون في تقدير المدى الذي يكون فيه سلوك الآخرين مدفوعًا بالمصلحة الذاتيّة إلى أن يصبح سلوكًا. يمكن للنّاس أن يكونوا أنانيّين في بعض الأحيان، ولكن يمكن أيضًا أن يكونوا إيثاريّين حقيقيّين ومهتمّين - ولكن عند محاولة شرح سلوك الآخرين، غالبًا ما يفترض النّاس الأنانيّة ونادرًا ما يفترضون دوافع خيريّة حقًّا أكثر ممّا هو مبرّر بالفعل. وكمثال على ذلك أنّ مارك زوكربيرج عندما قرّر التبرّع بـ 99٪ من أسهمه على«Facebook» للأعمال الخيرية. اندهشتُ، وأنا أقرأ ردود فعل وتدوينات لأشخاص اعتقدوا أنّه يفعل ذلك من منطلق المصلحة الذاتيّة.

ومن المثير للاهتمام أنّ أسطورة المصلحة الذّاتيّة هذه تزداد عندما يشعر النّاس بعدم اليقين. في إحدى التّجارب، أُبلِغ المشاركون أنّ مشاركًا آخر سيخصّص موارد قيّمة بين مشاركين اثنين. ومع ذلك، فقد واجه المشاركون، بدرجات متفاوتة، حالة من عدم اليقين تمثّلت في نقص المعلومات: لم يتمّ إبلاغهم بشكل كامل بكيفية التّوزيع المُخصّص للموارد. وقد أظهرت النتائج أنّ عدم اليقين المعلوماتيّ أدّى بالمشاركين إلى المبالغة في تقدير الموارد القيّمة التي منحها المخصّصون لأنفسهم والتقليل من تقدير الموارد القيّمة التي منحها الموزّعون للمشاركين. توقّع الناس أن يكون المخصّصون أكثر أنانيّة ممّا كانوا عليه في الواقع، وازداد هذا التأثير إلى درجة الإعتقاد بأنَّ النّاس لا يملكون أدنى فكرة عن الموارد التي تمَّ توزيعها. وقد استنتج المؤلّفون أنّ الناس عندما يفتقرون إلى المعلومات

«يملؤون الفراغات» باعتبارات أنانيّة[21].

تدور أسطورة المصلحة الذاتيّة هذه حول نظرة الأشخاص السلبيّة إلى الأفراد الآخرين، ولكن من خلال عمليّة مماثلة، يمتدّ تأثير مشاعر الخوف وعدم اليقين، فيطال الكيفيّة السّالبة الّتي ينظر بها النّاس إلى المجموعات الأخرى، داخل المجتمع الواحد. فَتَحت ضغط الأحداث المجتمعيّة والسياسيّة الّتي يواجهها النّاس في حياتهم اليوميّة، يتملّكهم الارتياب من الجماعات الّتي تخالفهم، بشكل أو بآخر، ويشعرون بعدم الارتياح لها، من قبيل المؤسّسات الحكوميّة أو الشركات الكبرى أو مجموعات الأقلّيّات غير الموثوق بها، ويفترضون أنّها تشكّل خطرًا، يهدّدهم، ويحيق بهم. نتيجة لذلك، يبتكر الناس نظريّات مؤامرة حول سوء سلوك هذه المجموعات، تجيب على أسئلة عديدةٍ لم يتمّ حلّها تدور كلّها حول الأحداث المجتمعيّة التي يحاولون فهمها. إنّ مشاعر عدم اليقين والخوف تؤدّي إلى وضع الناس في حالة ذهنيّة مريبة تسعى إلى الحصول على المعلومات، ممّا يؤدي بهم إلى إدراك المؤامرات الحاقدة باعتبارها مسؤولة عن مجموعة من الأحداث المجتمعيّة.

درست أبحاثٌ نفسيّةٌ عديدةٌ العلاقةَ بين المشاعر المخيفة وغير المؤكّدة وميل النّاس إلى تصديق نظريّات المؤامرة. أجريت دراسة واحدة في الأشهر الثلاثة الأخيرة من عام 1999. خلال تلك الأشهر، خشي الكثير من المواطنين في جميع أنحاء العالم من إغلاق كبير لأنظمة الكمبيوتر بسبب «خطأ الألفيّة»[22]. كانت هذه قضيّة رئيسيّة في ذلك الوقت. وقد تلقّى إمكان حدوث خطإ الألفيّة تغطيةً إخباريّة مستمرّة، فتملّك الخوف المواطنين، من فرضيّة حدوث تداعيات كبيرة على محطّات الطاقة والأنظمة المصرفيّة وإمدادات المياه وما شابه ذلك. لو بُرِّرت هذه المخاوف

---

(21) Gervais, W. M., &Norenzayan, A. (2012). Analytic thinking promotes religious disbelief. Science, 336 , 493–496.

(22). تعرفُ بمشكلة عام 2000. أو حشرة الألفيَة فقد حدثت مع اقتراب الألفية الثانية عام 2000 حيث كان المبرمجون قد اعتمدوا في إدخال الأرقام إلى الحاسوب في مجال البرمجة، على طريقة تخزين أرقام السنة التي تتكون من أربعة أرقام إلى رقمين فقط لتقليل كمية الذاكرة المستهلكة.

وأصبحت علّة الألفيّة حقيقة واقعة، لكانت لها عواقب وخيمة على الاقتصاد والرّعاية الصحّيّة ومجالات أخرى كثيرة تؤثّر بشكل مباشر في حياة المواطنين ورفاهيتهم، ولانتهت كلّ المجالات التي يديرها جهاز الكمبيوتر. ولكن انتهى الأمر بنهاية ذلك التّهديد دون إشكاليّات تذكر، داحضة كلّ تلك الهواجس الكثيرة. أي شيء تديره أجهزة الكمبيوتر سوف يتوقّف. ولكن لم يحدث شيء من ذلكَ، فقد جلّت الألفيّة الثّانية، دون إشكالات، داحضة كلّ ذلك القدر من الهواجس. وعلى هذه الخلفيّة، أجاب أكثر من 1200 مواطن أمريكيّ على استبيان لم يتعلّق فقط بمدى خوفهم من علّة الألفيّة ولكن أيضًا بمدى اعتقادهم في مجموعة من الأمور المشتركة. وقد اتّضح أنّ الأشخاص الذين خافوا علّةَ الألفيّة بنهاية عام 1999 كانوا الأكثر ميلًا إلى الاعتقاد بأنّ الرئيس كينيدي قد قُتل بمؤامرة؛ وأنّ القوّات الجوّيّة كانت تخفي أدلّة على أنّ الأجسام الطائرة قد زارت الولايات المتّحدة؛ وأنّ حكومة الولايات المتّحدة قد وضعت المخدّرات عمدًا في مجتمعات المدينة الداخليّة؛ وأنّ اليابانيّين كانوا يتآمرون لتدمير الاقتصاد الأمريكيّ. ارتبط الخوف من حشرة الألفيّة بالاعتقاد في مجموعة من نظريّات المؤامرة، بما في ذلك النظريّات التي لا ترتبط من الناحية المفاهيميّة بحشرة الألفيّة.(23)

أجرى باحثون مختلفون تجارب على هذا المنوال، وتظهر هذه الدّراسات عادةً أنّ الناس يؤمنون بنظريّات المؤامرة بقوّةٍ أكبر عندما يشعرون بالضّيق كأن يتمّ تذكيرهم بموقفٍ يفتقرون فيه إلى السّيطرة، والعكس بالعكس، فنسبة اعتقادهم تنخفض أو تتلاشى إذا تمّ تذكيرهم بالموقف الذي يتحكّمون فيه).(24) بالاشتراك مع عالمة النفس ميشيل أكير ومجموعة من مساعدي الأبحاث، أجرينا أيضًا مثل هذه التجربة في أمستردام. وقد أُجرِيت على خلفيّة بناء خطّ مترو جديد ومثير

.(23)Goertzel, T. (1994). Belief in conspiracy theories. Political Psychology, 15, 733–744.
.(24)Golec de Zavala, A., &Cichocka, A. (2012). Collective narcissism and anti5emitism in Poland. Group Processes and Intergroup Relations, 15 , 213–229

للجدل، يربط بين الجزأين الشّماليّ والجنوبيّ من المدينة. ورغم الفوائد الّتي يحملها هذا المشروع، فقد جُوبِه باعتراضات شديدة من لدن سكّان أمستردام، وذلك لأنّ أشغال البناء، ستمتدّ سنواتٍ كثيرة. أقيم استفتاء في الغرض، ورغم أنّ غالبيّة السّكّان قد صوّتوا ضدّ المشروع، إلّا أنَّ مجلس المدينة قد مضى قُدُمًا، وعرفت الأشغال عددا من الصّعوبات، انجرّت عن الزّيادة في الميزانيّة، وعن التّأخّر في الجدول الزّمنيّ المتّفق عليه. بلغ العداء الشعبيّ لهذا المشروع ذروته في عام 2009، عندما تسبّب البناء في مشاكل غير متوقّعة ألحقت ضررًا مباشرًا بسكّان المدينة، فقد أدّى البناء تحت الأرض إلى إتلاف أساسات الكثير من المنازل القديمة، فغاصت في الأرض، وقد كان من الضّروريّ إخلاؤها.

عندما تصدّرت «المنازل الغارقة» عناوين الأخبار المستمرّة، ذهب فريقنا من الباحثين المساعدين إلى كافتيريات الجامعة في أمستردام مع استبيانات قصيرة وطلبوا من الطلّاب المشاركة في دراسة قصيرة مقابل قطعة حلوى. طُلب من المشاركين أن يصفوا موقفًا من حياتهم يفتقرون فيه إلى السّيطرة، أو موقفًا لديهم فيه سيطرة كاملة. وطُلب من مجموعة ثالثة من المشاركين وصف موقف محايد من حياتهم، لا علاقة له بمشاعر الخوف أو عدم اليقين. ثمّ سألنا المشاركين عن نظريّات المؤامرة الّتي يعتقدون بوجودها في ما يتعلّق بخطّ مترو الشمال والجنوب، فباحوا باعتقادهم أنّ أعضاء مجلس المدينة قد تمّت رشوتهم من قبل شركات البناء، وأنّهم تعمّدوا أن يحجبوا عن الجمهور معلومات حول المشروع لتجنّب إعاقة بنائه، وما إلى ذلك. وكشفت النتائج أنّ المشاركين الذين شعروا بالخوف وعدم اليقين (بعد وصف موقف يفتقرون فيه إلى السيطرة) آمنوا بنظريّات المؤامرة هذه بقوة أكبر من المشاركين الذين شعروا بالثقة (بعد وصف موقف كان لديهم فيه سيطرة)[25].

.(25) Hogg, M. A. (2007). Uncertainty-identity theory. Advances in Experimental Social Psychology, 39 , 69–126.

وباختصار، فإنّ مشاعر الخوف وعدم اليقين، تغذّي الإيمان بنظريّات المؤامرة. ومع ذلك، فلهذه التّأثيرات نوعان من التّعقيدات نرى أنّها جديرة بالذّكر. يتمثّل التّعقيد الأوّل في أنّ هذه المشاعر البغيضة لا تؤدّي إلى نظريّات تآمريّة بين الجميع وفي كلّ الظّروف: في بعض الأحيان يمكن للخوف وعدم اليقين أن يزيدا في دعم السّلطات. لقد ناقشنا حتّى الآن نظريّات المؤامرة الّتي ظهرت بعد 11 سبتمبر، ولكن يجب علينا أيضًا أن ندرك عكس ذلك: في الأشهر التي أعقبت 11 سبتمبر مباشرة، كان جورج دبليو بوش من بين الرّؤساء الأكثر تأييدًا من قبل المواطنين عبر التّاريخ، فقد اتّسموا بتأييد مواقفهِ وسياساتهِ العامّة. من الواضح أنّ أحداث الحادي عشر من سبتمبر لم تكتف فقط بإثارة نظريّات تآمريّة واسعة الانتشار حول إدارة بوش بل أثارت دعمًا هائلًا لها. كيف يمكننا التوفيق بين هذا التّناقض والحجج الحاليّة؟

المفتاح هنا هو أنّ الخوف وعدم اليقين يؤدّيان إلى ولادة نظريّات تآمريّة، ولكن فقط إذا تضمّنت هذه النّظريّات مجموعات أو مؤسّسات قويّة لا يثق بها النّاس في البداية. قد يؤدّي الخوف وعدم اليقين في الواقع إلى زيادة الدّعم للمجموعات أو المؤسّسات القويّة التي يثق بها الناس. بحثت إحدى الدّراسات فيما إذا كان تصوّر القادة الأخلاقيّين أو غير الأخلاقيّين يؤثّر في الإيمان بنظريّات المؤامرة. وبطبيعة الحال، يعتقد النّاس أنّ نظريّات المؤامرة حول القادة، وهم يجدونها غير أخلاقيّة، أقوى من نظريّاتهم الّتي يجدونها أخلاقيّة. عندما يعاني النّاس من عدم اليقين، تصبح تأثيرات الأخلاق على الإيمان بنظريّات المؤامرة أكثر تأثيرًا. بعبارة أخرى، فإنّ عدم اليقين يجعل الناس يؤمنون بنظريّات المؤامرة بقوّة أكبر مع القادة المجرّدين من وازعٍ أخلاقي وهوَ اعتقادٌ ينتهي في حضرة القادة الذين يتّسمون ببعدٍ أخلاقي في سلوكيّاتهم[26]. الخوف وعدم اليقين لا يؤدّيان إلى تنظير مؤامرتيٍّ

.(26)Hogg, M. A., Adelman, J. R., &Blagg, R. D. (2010). Religion in the face of uncertainty: An uncertainty-identity theory account of religiousness. Personality and Social Psychology Review, 14 , 72–83.

عشوائيّ؛ إنّهما يقودان الناس إلى إلقاء اللوم على السّلطات أو المؤسّسات أو المجموعات التي شعروا بعدم الارتياح تجاهها منذ البداية.

وأمّا التعقيد الثاني فهو أنّ التفسير «الرّسميّ» لحدث الأزمة ينطوي في كثير من الأحيان على مؤامرة. فالقراءة الرّسمية لهجمات الحادي عشر من سبتمبر تشير إلى وجود مؤامرة مثّلها 19 إرهابيًّا انتحاريًّا من القاعدة. لماذا لم يصدّق الكثير من المواطنين هذه القراءة الرّسميّة، ومالوا في مقابل ذلك إلى الاعتقاد بوجود مؤامرة مختلفة من حكومة شرّيرة تقوم بعمليّة خاطئة؟ قد تجيب مسألتان مترابطتان عن هذا السّؤال. أوّلا، كما لوحظ سابقًا، عندما يشعر النّاس بالخوف وعدم اليقين، يكون ردّ فعلهم الطّبيعيّ الحذر، وافتراض أكثر التّفاسير سوءًا. وبهذا المعنى، يكون الاعتقاد بأنّ الحادي عشر من سبتمبر مؤامرةٌ حكوميّة (وليست مؤامرة للقاعدة) ردًّا يتجنّب المخاطرة: إنّه لأمر مزعج ومخيف وخطير أن نفترض أنّ حكومة المرء هي نفسها المسؤولة عن عمل إرهابيّ، يضرّ بمصالحها، ويزهق أرواح مواطنيها، فمثل هذا الاعتقاد أشدّ هولًا من ردّ ما حدث إلى جماعة إرهابيّة أجنبيّة معروفة تُراقبها عن كثب وكالات المخابرات. ثانيًا، وعلى نحو متّصل، فإنّ المؤامرة الحكوميّة تفسيرٌ أكثر تعقيدًا لأحداث 11 سبتمبر من خليّة إرهابيّة تابعة للقاعدة: فقد يعني ذلك على سبيل المثال أنّ المزيد من الأشخاص متورّطون، وأنّ مستوى الخداع سيكون أكبر، والمخطّط الّذي نُفِّذ سيكون أكثر ذكاءً، وبوجهٍ عامٍّ، تتمتّع الحكومة بسلطة أكبر من سلطة الخليّة الإرهابيّة. لقد شكّلت هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابيّة حدثًا كبيرًا في التّاريخ الحديث، وستكون المؤامرة الحكوميّة تفسيرًا رئيسيًّا لذلك. وإنّ الميل إلى الاعتقاد بنظريّة مؤامرة عظيمة قد يتأثّر بإرشاد أساسيّ للعقل البشريّ يسمّى تحيّز التّناسب proportionality bias، يميل الناس بمقتضاه إلى افتراض أنّ النتيجة الكبيرة يجب أن يكون لها سبب كبير.

الرّئيس إنسان، ولذلك فهو هشّ بدرجة كافية ليموت من الحوادث أو الأمراض المفاجئة. من الممكن تمامًا أن يموت رئيس يتمتّع بصحّة جيّدة من فيروس إنفلونزا صغير، تمامًا مثل أيّ شخص آخر. الآن، تخيّل لحظةً أنّ هذا سيحدث بالفعل لرئيس أمريكيّ جالس أو رئيس وزراء بريطانيّ. هل يعتقد الكثير من المواطنين أنّ هذا الحدث قد نتج بالفعل عن فيروس بسيط، أم إنّهم يؤمنون بنظريّة مؤامرة؟ على الرّغم من أنّ الآراء ستختلف بالتأكيد بين الجمهور، وسيعتمد كثيرون على تفاصيل محدّدة للقضيّة، فأنا واثق تمامًا بشكل عامّ من أنّ مواطنين كثيرين سيخرجون بنظريّات مؤامرة كبرى تؤكّد أنّ الرئيس قُتل (أو اختطف، أو تسبّبوا في موته). إنّ تفسير أسباب حدوث خطب كبير مثل وفاة رئيس من خلال سبب صغير مثل فيروس الإنفلونزا يصعب استيعابه من قبل كثير من الناس: لا يمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة. لا بدّ من أمر جلل، وأشدّ هولا. هذا هو جوهر تحيّز التناسب: الافتراض بأنّ عاقبة كبيرة يجب أن يكون لها سبب كبير.

بطبيعة الحال، من شأن الموت غير المتوقّع لرئيس أن يثير مشاعر الخوف وعدم اليقين بين السّكّان. لكنّ تحيّز التّناسب هو أيضًا أوسع من تنظيم هذه المشاعر البغيضة: إنّه دليل عقليّ بسيط يمكن رؤيته عبر مجالات الحكم، وأيضًا في المجالات الّتي لا علاقة لها بنظريّات المؤامرة الّتي لا تثير الخوف وعدم اليقين. تخيّل أنّ اثنين من الطّلاب المتشابهين يتعرّضان لتعطّل جهازي الكمبيوتر لديهما قبل الاضطرار إلى تسليم ورقة مهمّة. بالنّسبة إلى الطّالب الأوّل، فإنّ العواقب وخيمة: الأستاذ يساهمُ في رسوبِ الطّالب في الفصل ولا يمنح تمديدًا لاستلام الورقة؛ هذا يقود الطّالب إلى عدم التخرّج في الوقت المناسب فيُحرم من عرض عمل جذّاب. بالنّسبة إلى الطّالب الثاني، تكون النتائج هيّنة نسبيًّا: يسمح الأستاذ للطّالب بتمديدٍ لتسليم الورقة. ويتخرج الطّالب في الوقت المناسب، نتيجة لذلك،

فيحصل على وظيفة جذّابة. ما السّبب الممكن في تعطّل الكمبيوتر لدى الطّالب الأوّل والثاني؟

في دراسة بحثيّة، قرأ نصف المشاركين سيناريو افتراضيّا للطالب الأوّل، بينما قرأ النصف الآخر سيناريو للطالب الثاني. ثمّ اختاروا ما اعتقدوا أنّه السّبب الأكثر احتمالًا للانهيار: فيروس كمبيوتر منتشر (سبب كبير) أو مروحة تبريد كمبيوتر معطّلة (سبب صغير). أدرك المشاركون في البحث الذي أجريَ على نطاق واسع أنّ الفيروس الذي يمثّلُ خطرًا على جهازِ الكمبيوتر أشدُّ خطورةً من مروحة معطّلة. ولكنّ الأهمّ من ذلك أنّه عندما كانت العواقب كبيرة على الطّالب، كان المشاركون في البحث أكثر عرضة للاعتقاد بأنّ تعطّل جهاز الكمبيوتر كان له سبب كبير - أي فيروس. من غير المرجّح أن تفسّر هذه النّتائج بالخوف وعدم اليقين: فبعد كلّ شيء، كانت هذه سيناريوهات افتراضيّة لطالب غير معروف. بدلًا من ذلك، كان تحيّز التّناسب فاعلًا هنا: افترض المشاركون سببًا كبيرًا لنتيجة كبيرة - في هذه الحالة، فيروس كمبيوتر إذا تسبّب العطل في فشل الطالب في دراسته[27].

وبالمثل، فقد ثبت أنّ تحيّز التناسب يؤثّر على ميل النّاس إلى تصديق نظريّات المؤامرة. تخيّلوا أنّ رئيس دولة صغيرة اغتيل. في إحدى الحالات، يحرّض هذا الاغتيال على سلسلة غير متوقّعة من الأحداث تؤدّي في النّهاية إلى الحرب. في الحالة الأخرى، قد يكون الاغتيال مأسويًّا، لكنّه لا يؤدّي إلى حربٍ. بعبارة أخرى، يمكنُ للاغتيال أن تكون لهُ عواقبُ كبيرة (حرب) ويمكنُ أن يكون بلا عواقب. من اغتال الرئيس - هل كان مسلّحا منفردًا أم مؤامرة حكوميّة؟ كشفت دراسة أنّ المشاركين ينظرون إلأى الإغتيال على أنّهُ مؤامرة، فقط في حال قادَ إلى

.(27)Imhoff, R. (2015). Beyond (right-wing) authoritarianism: Conspiracy mentality as an incremental predictor of prejudice. In M. Bilewicz, A. Cichocka, & W. Soral (Eds.), The Psychology of Conspiracy (pp. 122–141). Oxon, UK: Routledge. ١

حرب. مرّة أخرى، افترض الناس سببًا كبيرًا وراء حدوث نتيجة كبيرة، تغذّي في هذه الحالة نظريّة المؤامرة. تشير دراسات أخرى مختلفة إلى مبدإٍ مشابه: كلّما كان الحدث المجتمعيّ أكثر تأثيرًا وضررًا (بما في ذلك الأحداث الافتراضيّة)، ازداد احتمال توصّل النّاس إلى نظريّة المؤامرة لتفسيرها.

بنية المعتقد



أرجو أن تفتحَ حاسوبكَ وتبحث في غوغل عن «**نظريّة الأرض المجوّفة- hollow Earth theory**». سوف تجد عددًا كبيرًا من مواقع الويب العلميّة الزائفة الّتي تقدّم ادّعاءات رائعة حول الخصائص الفيزيائيّة لكوكب الأرض. كما يوحي الاسم، تؤكّد هذه النظريّات أنّ الأرض جوفاء في الواقع. يمكن الوصول إلى باطن الأرض من خلال مدخلٍ يقع في القطب الشماليّ، وتعيش جميع أنواع المخلوقات بالقرب من نواة الأرض - مخلوقات عملاقة، سلالة متطوّرة من البشر، ولكن أيضًا عائلات النّازيّين الذين هربوا من ألمانيا بعد الحرب العالميّة الثانية. هناك المزيد من المتغيّرات الغريبة في النّظريّة، تدّعي أنّنا جميعًا نعيش داخل الأرض وأنّ ما يبدو أنّه السّماء هو في الواقع لبّ الأرض. في القرون الماضية، لم يكن الإيمان بالأرض المجوّفة أمرًا شائعًا حتّى بين العلماء، وبالطّبع كانت هذه النّظريات مصدر إلهام لجول فيرن لكتابة روايته الشّهيرة رحلة إلى مركز الأرض. لكن الآن، يجب أن نعرف الحقيقة بشكلٍ أفضل. لدينا ما يكفي من الأدلّة العلميّة لنكون على ثقة بأنّ الأرض ليست فارغة وأنّه لا توجد مجتمعات مجهولة يمكن العثور عليها داخل كوكبنا. لا يزال الكثير من النّاس يؤمنون بنظريّة الأرض المجوّفة.

بشكل عامّ، يؤمنُ النّاس بأغرب الأشياء رغم افتقارها التّامّ إلى الأدلّة. فأيّ

زيارة لمعرض خوارق ستكشف عن مجموعات كبيرة من المواطنين العاديّين ممّن يعتقدون اعتقادًا راسخًا أنّ التنبّؤ بالمستقبل ممكن، عبر قراءة الكفّ أو في بطاقات التّارو. وللتّخاطر في مثل هذه الفضاءات نصيبُه من الاعتبار، ومن ثقة المرتادين، إذ يعتقدون في قدرة بعضهم على قراءة عقل شخص مختلف بغضّ النّظر عن المسافة المادّيّة بينهما. ويمكن للوسطاء الّذين يدّعون القدرة على الاتّصال بأرواح الأموات من الأقارب، أن يكسبوا ثروة. وربّما تعلّق الأمر بمعالجة الأمراض، بما ينافي العلوم الطّبّيّة ويتعارض معها، فترى النّاس يستعيضون عنها بأساليب بديلة من قبيل المعالجة المثليّة أو الريكي أو الشفاء الرّوحي. (هذا الكتاب ليس المكان المناسب لمناقشة مستفيضة لحقيقة أنّ البحث لا يجد أيّ دعم لأيّ من هذه الظواهر الخارقة. بالنسبة إلى القرّاء المهتمّين بهذه المسألة، أشير إلى كتاب لريتشارد وايزمان صدر عام 2015 Paranormality: The Science of the Supernatural).[28]

ما هو المعتقد؟ وفقًا لموقع-Dictionary.com، فإنّ المعتقدَ هو «الوثوقُ في حقيقةٍ أو وجود شيء لا يحملُ إثباتًا ملموسًا». وهكذا، فإنّ الاعتقاد بحكم التّعريف هو اقتناع غير مثبت بالحقيقة. لذلك لا ينبغي الخلط بين المعتقدات والحقائق. القول بأنّ الأرض تدور حول الشّمس ليس اعتقادًا بل حقيقة (يمكننا قياس ذلك ومراقبته)؛ القول بأنّ لله دورًا سببيًّا في الأرض التي تدور حول الشمس هو اعتقاد (لا يمكننا قياس الله أو مراقبته). توجد أنواع عديدة من المعتقدات المختلفة نوعيًّا والمتعلّقة بقوانين الفيزياء، والدّين، والأيديولوجيّات السّياسيّة، والمؤامرات، والعلاقات بين الأشخاص، وما إلى ذلك. يمكن أن يكون الإيمان بنظريّة الأرض المجوّفة، وغالبًا ما يكون، اعتقادًا تآمريًّا (ففي النّهاية، المؤامرة بالنّسبة إلى العلماء تتمثّل في كون الأرض جوفاء وتخفي الحقيقة عن الجمهور عمدًا)، ولكنّه أيضًا اعتقاد علميّ زائف حول الخصائص الفيزيائيّة

.(28) Imhoff, R., &Bruder, M. (2014). Speaking (un-)truth to power: Conspiracy mentality as a generalized political attitude. European Journal of Personality, 28, 25–43.

لكوكب الأرض. الاعتقاد في التّخاطر أو قراءة اليد هي معتقدات خارقة للطّبيعة، لأنّها توحي بوجود قوى غير معروفة في الطّبيعة، لكنّها ليست نظريّات مؤامرة، لأنّها عادة لا تنطوي على مؤامرةٍ. لكن يمكن للنّاس أيضًا أن يشكّوا ببساطة في أنّ زوجاتهم يخنّهم، وهو اعتقاد ماداموا لا يملكون دليلًا قويًّا لإثبات شكوكهم.

رغمَ هذه الاختلافات النّوعية، أعتقدُ هنا أنّ جميع المعتقدات تخدم وظيفة مماثلة، وهي مساعدة الناس على فهم موقف غير مؤكّد. بعد كلّ شيء، تقدّمُ المعتقدات بحكم تعريفها تأكيدات حول قضايا غير مثبتة، أي عدم اليقين. وتساعد معتقدات المؤامرة النّاسَ على فهم الأحداث المؤلمة من خلال تقديم تفسير يقفُ ضدّ مجموعة معادية من النّاس. ويساعد الإيمان بعلم التنجيم النّاسَ على فهم المستقبل غير المؤكّد من خلال جعل ما لا يمكن التنبّؤ به أكثر قابليّةً للتنبّؤ. أمّا الإيمان بقدرة الوسطاء على التّواصل مع الأقارب الأموات فيساعد الناس على فهم ما فعله عمّهم الرّاحل جون مؤخّرًا وما إذا كان يغفر لهم كلّ الأشياء السّيّئة الّتي اقترفوها في حقّه (إذا أردنا أن نصدّق الوسطاء، سنجدُ أنّ العمّ جون يغفر الأخطاء). تدور المعتقدات الأكثر دنيويّةً أيضًا حول فهم موقف غير مؤكّد، حتّى عندما لا تكون غير عقلانيّة (على سبيل المثال، الشكّ في خيانةِ الزّوج يمكن أن يكون مبررًا تمامًا، ولكنّه لا يزال طريقة لفهم سلوك الزّوج —فيمكنُ أن يكونَ التّراجع في الحياة الزّوجيّة ناتجًا عن ظروف العمل). للأغراض الحاليّة، سأقصر المناقشة على المعتقدات التي من غير المرجح أن تكون صحيحةً وسأركّز بشكل خاصّ على مجموعة من نظريّات المؤامرة والمعتقدات الخارقة للطّبيعة.

إذا كان التّشابه يسم الوظيفة الأساسيّة لتكوين المعنى الخاصّ بالمؤامرة وبالمعتقدات، فإنّ المترتّب على ذلك هو أن يكون تأييد أحد هذه المعتقدات تشخيصًا لاحتمال تأييد معتقد آخر منها. هذا بالتأكيد هو الحال بالنّسبة إلى نظريّات المؤامرة. إنّ أفضل متنبّئ منفرد للإيمان بنظريّة مؤامرة واحدة هو الإيمان بنظريّة مؤامرة مختلفة غير موثوقة. فكلّما ازداد اعتقاد النّاس أنّ الحادي عشر من

سبتمبر كان عملًا داخليًّا، ازداد احتمال اعتقادهم أيضًا أنّ مصانع الأدوية تجري تجارب طبيّة غير قانونيّة في دول العالم الثالث، وأنّ الرّؤساء التنفيذيّين لشركات النّفط يرشون السّياسيّين لبدء الحروب في الشّرق الأوسط، أو أنّ العلماء يختلقون بيانات بحثيّة للمبالغة في مخاطر تغيّر المناخ. في الواقع، حتّى المعتقدات في نظريّات المؤامرة الحصريّة المتبادلة مترابطة بشكل إيجابيّ. وجدت إحدى الدّراسات أنّ الأشخاص الذين يعتقدون أنّ الأميرة ديانا قد ماتت ميتة طبيعيّة هم أيضًا أكثر عرضة للاعتقاد بأنّ الأميرة ديانا قُتلت(29). فالأشخاص الذين يشكّكون في وفاة الأميرة ديانا ليسوا متأكّدين تمامًا ممّا حدث بالضّبط، ولكن من خلال التفكير بجديّة في احتمال أنّها لم تمت في حادث، يفتح ذلكَ الباب لمجموعة من نظريّات المؤامرة. (لست متأكّدًا ممّا إذا كانت قد ماتت ميتة عاديّة أم أنّها قتلت، لكنّني أعرف أنّ هذا لم يكن حادثًا).

التّفسير الشائع للملاحظة التي تفيد بأنّ بعض الأشخاص بشكل عامّ أكثر عرضة لإدراك المؤامرات من غيرهم هو أنّ معتقدات المؤامرة تشكّل «معتقدًا أحاديًّا»، أو أنّ النّاس يختلفون في مدى نشاط «العقليّة التآمريّة» لديهم. تعني هذه التفسيرات أنّ الاعتقاد بنظريّة مؤامرة واحدة يعزّز نظرة عامّة أكثر إلى العالم تتضمّن وجود مؤامرات خبيثة تسيطر على الخيوط التي تحكمه(30). بعبارة أخرى، إذا اعتُبِرت إحدى نظريّات المؤامرة صحيحة، فإنّها تقلّل من عتبة افتراض أنّ نظريّات المؤامرة الأخرى صحيحة أيضًا لأنّ المؤامرات أحيانًا تسبّب أحداثًا مؤثّرة في العالم على ما يبدو. هناك مشكلة واحدة أواجهها مع هذا النوع من التفكير، إذ يرتبطُ الإيمان بنظريّات المؤامرة ارتباطًا وثيقًا بالمعتقدات الخارقة للطّبيعة، بما في

.(29) Inglehart, R. (1987). Extremist political position and perceptions of conspiracy: Even paranoids have real enemies. In C. F. Graumann& S. Moscovici (Eds.), Changing conceptions of conspiracy (pp. 231–244). New York, NY: Springer-Verlag.

.(30)Jost, J. J., Glaser, J., Kruglanski, A. W., &Sulloway, F. J. (2003). Political conservatism as motivated social cognition. Psychological Bulletin, 129 , 339–37

ذلك المعتقدات التي تنصبُّ في خانة نظريّة المؤامرة. وبعبارة أخرى، فالأشخاص الذين يؤيّدون المعتقدات الخارقة للطّبيعة - مثل الاعتقاد في التّخاطر، والشّفاء الرّوحيّ، وعلم التّنجيم، وما شابه، هم أيضًا أكثر عرضة من المشكّكين في نظريّات المؤامرة، للإيمانِ بهذه التّصوّرات(31). فضلا عن العقليّة التآمريّة، يبدو أنّ الناس يختلفون في مدى امتلاكهم «عقليّة إيمانيّة» تهيّئهم لقبول الأفكار التي لا دليل عليها.

إنّ الرؤية القائلة بأنّ المؤامرة والمعتقدات الخارقة تتنبّأ بعضها ببعضٍ تشير إلى بنية عقليّة مشتركة. حتّى نكون أكثر دقّة، يمكن للنّاس أن يختلفوا بشكل كبير في ما يفعلون أو ما لا يؤمنون به، لكنّ العمليّات المعرفيّة الأساسيّة التي تؤدّي إلى كلّ هذه المؤامرات المختلفة والمعتقدات الخارقة متشابهة. هذه العمليّات تلقائيّة إلى حدّ كبير، وتمكّن الناس من فهم بيئتهم. كملاحظة أولى، فإنّ كلًّا من المؤامرة والمعتقدات الخارقة متجذّرة في أسلوب التّفكير البديهيّ وتحلُّ محلّ أسلوب التّفكير التحليليّ. يعني التّفكير البديهيّ أنّ النّاس يعتمدون على مشاعرهم الغريزيّة ويصدرون أحكامًا بناءً على التّفكير الانعكاسيّ والاستدلال. أمّا التّفكير التّحليليّ فمعناه أن يُخضع النّاس ما يتلقّونه من معلومات للنّقد والمساءلة، ولشبكةٍ معقّدة من التّمحيص والنّظر. فإذا كان التّفكير البديهيّ متاحًا، وعلى قدر من السّهولة، فإنّ التّفكير التّحليليّ في غاية الصّعوبة، ويتطلّب قدرا من البحث، والاجتهاد، وقدرا من التّركيز.

قد يبدو التّفكير البديهيّ مقارنة بالتحليليّ غير منطقيّ، بالنظر إلى مدى وضوح بعض نظريّات المؤامرة المحبوكة بعنايةٍ، وإلى طريقة صياغتها. يستند الكثير من نظريّات المؤامرة الخاصّة بـ11 سبتمبر إلى تحليل مفصّل لطريقة تشييد المباني، ودرجات الحرارة التي يذوب فيها الفولاذ، ونوع الطّاقة الّتي يحتمل انبعاثها من

(31)Judis, J. B. (2016). The populist explosion: How the great recession transformed American and European politics . New York, NY: Columbia Global Reports.

طائرة ركّاب تسيرُ بسرعة معيّنة. أظنّ أنّ هذه النّظريات المفصّلة نفسها مرتبطةٌ في نشأتها بنوع من الحدس، محصّله أنّ «شيئًا مّا يجب أن يكون خاطئًا» يدفع النّاس لاحقًا إلى البحث عن أدلّة داعمة. تبدأ كلّ من المعتقدات الخارقة للطبيعة والتآمر بالحدس، في النّشوء انطلاقًا من حكم سريع مفادهُ، أنّه لا يمكن فهم موقفٍ معيّنٍ دون قوى خفيّة وغامضة. تشير الأبحاث إلى أنّ الميل نحو التفكير التحليليّ - وما يرتبط به من مستويات تعليم عالية - يجعل النّاس أقلّ عرضة لتصديق نظريّات المؤامرة وأقلّ عرضة لتأييد المعتقدات الخارقة للطّبيعة[32].

يرتكز الاعتقاد على صنع المعنى، ويتمّ صنعه من خلال عمليّات عقليّة تلقائيّة وحدسيّة، وسأفصّل في ما يلي القول في المكوّنين الرئيسيّين لمثل هذا المعنى التلقائيّ. في كتابه-**The Believing Brain** الصّادر عام 2011، يبحث المشكّك المعروف مايكل شيرمر في كيفيّة تشكّل المعتقدات ويجد دليلًا على عمليّتين يسمّيهما "الأنماط" و "الفاعليّة"[33]. تعكس هاتان العمليّتان المكوّنين الأوّلين لنظريّات المؤامرة الموصوفة في الفصل الأوّل: إدراك الأنماط واكتشاف القوّة العاملة. كلتا العمليّتين المعرفيّتين جزءٌ أساسيّ من كيفيّة عمل العقل، ولا غنى عنهما لكي يعمل البشر بشكل طبيعيّ. على وجه التّحديد، يدور صنع المعنى حول رؤية الأنماط والكشف عن الفاعليّة، وهو ما يفعله البشر بشكل مستمرّ وتلقائيّ أثناء ممارسة حياتهم اليوميّة. وسألقي في ما يلي الضّوء على هاتين اللّبنتين الرّئيسيتين في بنية المعتقد.

إدراك النّمط

إدراك الأنماط هو ميل العقل البشريّ إلى «ربط النقاط» بعضها ببعض وإدراك

(32) Kay, A. C., Gaucher, D., McGregor, I., & Nash, K. (2010). Religious conviction as compensatory control. Personality and Social Psychology Review, 14 , 37–48.
(33)LeBoeuf, R. A., & Norton, M. I. (2012). Consequence-cause matching: Looking to the consequences of events to infer their causes. Journal of Consumer Research, 39 , 128–141.

العلاقات ذات المغزى والعلاقات السّببيّة بين الأشخاص والأشياء، والحيوانات والأحداث. إنّ إدراك الأنماط يتعارض مع الإدراك العشوائيّ، فالأحداث العشوائيّة فوضويّة ولا يمكن التنبّؤ بها؛ أمّا الأحداث التي تحتوي على أنماط فغير عشوائيّة وهي مفهومة ويمكن التنبّؤ بها. إنّ قدرة العقل البشريّ على البحث والعثور تلقائيًّا على الأنماط وظيفيّة جدًّا، لأنّها تمكّن البشر - من بين أشياء أخرى - من التّنبؤ بعواقب أفعالهم. في الواقع، أودّ الإقرار بأنّ معظم النّاس لن يعيشوا يومًا واحدًا دون قدرتهم على إدراك الأنماط. أنا أحبّ الرّكض، ودائمًا ما أتّخذ قرارًا واعيًا للقيام بذلك في الحديقة. لماذا لا أختار أبدًا تغيير المشهد وأقرّر الرّكض في طريق سريعة مزدحمة؟ ببساطة، لا أفعل ذلك لأنّني أرى أنماطًا. أفهم أنّ هناك علاقة سببيّة وذات مغزى بين السّيّارات الّتي تقود بسرعة عالية وثمّة احتمال للموت إذا حاول المرء الركض في طريقه. يكمنُ الفرق بين الرّكض في المنتزه والرّكض في الطريق السريعة في العواقب الصّحّيّة المتوقّعة، وحقيقة أنّ الناس قادرون على تقدير ذلك يجعلهم أكثر استعدادًا للتنقّل بفعاليّة في العالم. فدون القدرة على إدراك الأنماط، سيفقدُ النّاسُ أدواتِ الدّفاعِ لديهم.

يوجَد عيب واحد في ميل العقل التّلقائيّ إلى البحث عن الأنماط، ففي بعض الأحيان تكون الأحداث عشوائيّة بالفعل، لكنّ معظم الناس يدركون الأنماط على أيّ حال. يُشار إلى هذا بإدراك النّمط الوهميّ: يرى النّاس أحيانًا علاقات ذات مغزى لا وجود لها. في الواقع، النّاس سيّئون بالتّأكيد في إدراكاتهم العشوائيّة. تخيّل أن يُطلب منك تحقيق نتيجة عشوائيّة لتسلسل تقليب العملة المعدنيّة (على سبيل المثال، 100 رمية؛ رؤوس أو ذيول) دون أن تكون قادرًا على رمي عملة معدنيّة بالفعل. يفشل الناس فشلًا ذريعًا في هذه المهمّة، لأنّ التسلسل الذي ينتجه إنسان يحاول أن يكون عشوائيًّا يختلف اختلافًا جوهريًّا عن تسلسل عشوائيّ حقيقيّ[34].

.(34)Lobato, E., Mendoza, J., Sims, V., & Chin, M. (2014). Examining the relationship between conspiracy theories, paranormal beliefs, and pseudoscience acceptance among a university population. Applied Cognitive Psychology, 28, 617–625.

ما يحدث عادةً هو أنّ النّاس يتناوبون كثيرًا: بعد ثلاث نتائج «رؤوس»، قد يشعر الإنسان بأنّه مضطرّ إلى جعل النّتيجة الرابعة «ذيول» للتسلسل لكي «يظهر عشوائيًّا». لكنّ العشوائيّة الحقيقيّة لا تهتمّ بالظّهور بشكلّ عشوائيّ. في تسلسل عشوائيّ، بعد ثلاث مرّات من «الرؤوس» هناك فرصة أخرى بنسبة 50٪ للرّمية التّالية. لذلك يقلّل الناس من الناحية الهيكليّة من تكرار ظهور مجموعات من النّتيجة نفسها من خلال عمليّة عشوائيّة (على سبيل المثال، ستّ مرّات مع «رؤوس» على التوالي). ومن المفارقات أنّ مثل هذه المجموعات تبدو كما لو أنّها أنماط للعقل البشريّ. لكنّ الحقيقة هي أنّ هذا ما تبدو عليه العشوائيّة الحقيقيّة غالبًا.

بتعاملهم مع الصّدفة، أو غير المؤكّد من النّتائج، يرصد النّاس أنماطًا وهميّة. وتعدّ الكازينوهات أحد الأمثلة على البيئة حيث يتعيّن على الناس باستمرار توقّع النتائج التي تعتمد كليًّا على الصدفة. غالبًا ما يحاول الأشخاص اكتشاف الأنماط في الألعاب مثل لعبة ورق أو لعبة الروليت ويبدؤون في المراهنة على مبالغ ماليّة أكبر إذا كانوا في «حظٍّ متتابعٍ»، أو تبديل الجداول إذا كان البنك يعمل بشكل جيّد، أو وضع أموالهم على رقم غير متساوٍ إذا كانت هناك نتيجة عدد زوجيّ تظهرُ مرّات عديدة على التوالي. في الواقع، تشير الأبحاث إلى أنّ الميل إلى إدراك الأنماط في المحفّزات العشوائيّة يعدّ مؤشّرًا جيّدًا على المقامرة المعتادة[35].

ومن المثير للاهتمام، أنّ إدراك النّمط الوهميّ لا يبدو مقصورًا على البشر، فقد عُثِر على آثار لإدراك النّمط الوهميّ بين الحمام. قام عالم النفس سكينر، المعروف بعمله في التكييف الفعّال، بتزويد الحمام الجائع بالطّعام على فترات زمنيّة

.(35)Mashuri, A., &Zaduqisti, E. (2013). The role of social identifi cation, intergroup threat, and out-group derogation in explaining belief in conspiracy theory about terrorism in Indonesia. International Journal of Research Studies in Psychology, 3 , 35–5

منتظمة(36). ما وجده كان رائعًا جدًّا، إذ بدأ الحمام في القيام بما كان يفعله قبل وقت قصير من تلقّيه الطّعام في التّجربة السّابقة. من الواضح أنّ الطّيور رأت نمطًا وهميًّا، من خلال ربط سلوكها بالطّعام الّذي تلقّته: «آخر مرّة هززت رأسي بهذا الشّكل تلقّيت علاجًا رائعًا، لذلك دعونا نحاول مرّة أخرى». في الواقع، ستحصل على الطّعام في وقت لاحق، بغضّ النظر عمّا فعلته. على حدّ تعبير سكينر:

يمكن القول إنّ التّجربة قد أظهرت نوعًا من الخرافات. فالطّائر يتصرّف كما لو كانت هناك علاقة سببيّة بين سلوكه وطريقة تقديم الطّعام، على الرّغم من عدم وجود مثل هذه العلاقة(37).

يميل النّاس إلى إدراك الأنماط في العشوائيّة، وهذا الإدراك الوهميّ للأنماط جزءٌ من سيكولوجيّة المعتقد. تتحقّق أحداثٌ عديدةٌ في العالم عبر الصّدفة، ويميل الناس إلى إرجاع هذه المصادفات إلى قوى غامضة. إذا احترق منزل شخص مّا بعد أن ضربه البرق، فقد يحسب صاحب البيت أنّ مصابه، محض عقاب، لأنّه كذب على زملائه أو زميلاته الأسبوع الماضي، وينسى كلّ الأكاذيب التي صدرت عنهم دون أن يضربهم البرق. ومن بين الأمثلة الكلاسيكيّة والسّائدة أن يمرّ أحدهم بفكرك، فتجد أنّه يتّصل بك بشكل مفاجئٍ. ومثل هذا الأمر لا يمكن أن يردّ إلى الصدفة، في اعتقاد بعضهم، ممّن يؤمنون إيمانا قاطعا بوجود سبب خفيّ وراء حدوثه. هكذا يعتقد الناس. لكنّ للناس الكثير من الأصدقاء القدامى ومن بينهم من يتذكّر صديقًا قديمًا لم يتّصل بِهِ منذُ وقتٍ طويل. لا بدّ أن تحدث مثل هذه

---

(36) Mashuri, A., &Zaduqisti, E. (2015). The effect of intergroup threat and social identity salience on the belief in conspiracy theories over terrorism in Indonesia: Collective angst as a mediator. International Journal of Psychological Research, 8 , 24–35.

(37) McGregor, I. (2006). Offensive defensiveness: Toward an integrative neuroscience of compensatory zeal after mortality salience, personal uncertainty, and other poignant self-threats. Psychological Inquiry, 17 , 299–308.

المصادفات من حين إلى آخر، ولكن عندما يحدث ذلك، يفشل الناس في التعرّف إليها على حقيقتها: إنّها **أنماط وهميّة**-Illusory Patterns.

غالبًا ما يستخدم المعالجون الرّوحانيّون هذا المبدأ لإقناع الجمهور بفاعليّة علاجاتهم. تخيّل أنّ معالجًا روحيًّا يعالج كثيرين من مرضى السّرطان، ويتّصل به أحدهم ذات يوم، ممتنًّا، ويعلمه بشفائه. سيرى المعالج في هذا ظفرًا، يفاخر به، ويسعى من خلاله إلى إفحام الجمهور، سواء من العالمين بالطبّ، أو من العامّة، بما يمجّد فعله، ويؤكّد وجاهته، وأحقّيّته بالاعتبار. غير أنّ ما يتجاهله الرّوحانيّ هو أنّ نسبة حدوث شفاء تلقائيّ من هذا الدّاء الخبيث قائمة، وإذا كان عدد المرضى الذين وثقوا به كبيرًا، فهناك احتمال قائم أن يحظى أحدهم بشفاء تلقائيّ لا يمكن ردّه بالضّرورة إلى الرّوحانيّ. ولعلّ الأهمّ ممّا تقدّم هو أنّ المعالج يغضّ نظره عن أولئك الّذين لم يتّصلوا به ممتنّين، أولئك الّذين لم يغادرهم السّقم وظلّوا يكابدون، وربّما ازدادت أحوالهم سوءًا، وعجّل بموت بعضهم، لأنّ تعلّقهم بأمل الشّفاء على يد المعالج جعلهم ينقطعون عن المعالجة الطّبّيّة المنتظمة.

قد تقوم نظريّات المؤامرة على الرّبط بين أحداث قد تكون مصادفة تمامًا، وقد يحدث العكس. فبعض نظريّات مؤامرة الحادي عشر من سبتمبر تساهم في ترويج القصّة القائلة إنّ وزير الدّفاع آنذاك دونالد رامسفيلد كان في الجانب الآمن من البنتاغون عندما اصطدمت الطّائرة بالمبنى. «هذا لا يمكن أن يكون مصادفة – لا شكّ أنّه كان على علم بقدوم الطائرة!» بغضّ النّظر عن حقيقة أنّه كان ببساطة في مكتبه عندما حدث ذلك، إذ يحتمل أن يكون في أيّ يوم عملٍ عاديّ. قد يرى المرء في وجوده بالبنتاغون دليلًا على عدم درايته بما سيحدث، لأنّ شخص ليست لديه ميول انتحاريّة ويعرف أنّ طائرة على وشك الاصطدام بمبنى فالراجح أن ينأى بنفسه عنه. وبالمثل، ترى بعض نظريّات المؤامرة علاقة ذات مغزى بين انهيار المبنى 7 في 11 سبتمبر والوثائق السرّيّة حول المعاملات الماليّة غير القانونيّة التي يُفترض أنّها مخزّنة في ذلك المبنى. إذا كانت هناك بالفعل مستندات إدانة في المبنى السّابع

أرادت السّلطات التّخلّص منها، فلا يسعني إلّا أن أتساءل عمّا إذا كانت آلة التّقطيع قد تكون حلًّا أكثر فاعليّة من اختطاف أربع طائرات ركّاب.

السؤال البحثيّ المثير للاهتمام الذي يتبع دور إدراك النّمط في المعتقد هو: هل الأشخاص المعرّضون للمعتقدات الخارقة للطّبيعة أو المؤامرة بشكل عامّ أكثر عرضة لإدراك الأنماط في العشوائيّة؟ في خصوص المعتقدات الخارقة للطبيعة، اختبِر هذا السؤال لأوّل مرّة في العام 1985، إذ قدّم باحثان للمشاركين في البحث مجموعةً من المهامّ المحتَمَلة - أي المهامّ الّتي كان على المشاركين فيها تقدير ما إذا كانت بعض النّتائج قد حدثت بالصّدفة أو من خلال عمليّة غير عشوائيّة (على سبيل المثال، رمي العملة المعدنيّة). كان أداء غير المؤمنين بالظّواهر الخارقة أفضل في هذه المهامّ - وبالنتيجة، كانوا أفضل في التّعرّف إلى العشوائيّة - من المؤمنين بالظّواهر الخارجيّة[38]. منذ ذلك الحين، اختُبِرت هذه الفكرة بشكل متكرّر، وتشير معظم الدّراسات إلى أنّ أحد الاختلافات بين المؤمنين بالخوارق وغير المؤمنين بها هو التّباين في قدرتهم على أن يتعرّفوا إلى الصّدف.

ومع ذلك، فإنّ العلاقة بين الاعتقاد والقدرة على اكتشاف العشوائيّة لا تظهر تحت كلّ الظّروف. لا تجد بعض الدّراسات علاقة بين الاعتقاد بالخوارق وإدراك النّمط الوهميّ. علاوة على ذلك، لم يجد الباحثون في فرنسا علاقة بين معتقدات المؤامرة وإدراك الأنماط. يشير هذا إلى أنّ العلاقة بين المعتقد وإدراك النّمط لا تظهر لجميع الناس أو تحت جميع الظّروف. ما الّذي يحدّد ما إذا كان الاعتقاد مرتبطًا بمَيل عامّ إلى إدراك الأنماط في العشوائيّة؟ على الرّغم من التّكهّنات في هذه المرحلة، فإنّ دراستين تقدّمان اقتراحًا مثيرًا للاهتمام من خلال إيجاد علاقة بين المعتقد وإدراك النّمط في عيّنات السّكّان العاديّة ولكن ليس في العيّنات ذات التّعليم العالي من طلّاب الجامعات. يجري كثيرون من علماء الاجتماع أبحاثًا بين

.(38)Midlarsky, M. L. (2011). Origins of political extremism. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

طلّاب الجامعات، وعادة ما يكون ذلك بدافع الملاءمة. يجب ألّا يمثّل هذا مشكلة في جميع الحالات، ولكن عند دراسة المعتقدات، نجد أنّ هذه العيّنات الجامعيّة لا تخلو من عيبٍ، نظرًا إلى أنّ الأشخاص المتعلّمين تعليمًا عاليًا هم أقلّ عرضة للاحتفاظ بمعتقدات خارقة للطّبيعة أو مؤامرة من الأشخاص الأقلّ تعليمًا. من الممكن أنّ الأشخاص الّذين لديهم مثل هذه المعتقدات المبالغ فيها هم فقط من يُظهرون قدرة متقلّبة على التّعرف إلى العشوائيّة.

لتحديد ما إذا كانت معتقدات المؤامرة ترتكز على إدراك النّمط الوهميّ أم لا، أجريت سلسلة من الدّراسات مع كارين دوغلاس وطالبة تدعى كلارا دي إينوسينسيو على عيّنات عاديّة من السّكّان. وجدنا أنّ الأشخاص الذين رأوا أنماطًا في نتائج رمي العملات العشوائيّة كانوا أيضًا أكثر عرضة لتصديق نظريّات المؤامرة، وكذلك الظواهر الخارقة للطّبيعة. بالإضافة إلى ذلك، نظرنا إلى المدى الذي رأى فيه المشاركون أنماطًا في لوحات مجرّدة وفوضويّة إلى حدّ مّا للفنّان الأمريكيّ جاكسون بولوك. هذه لوحات تثير ردود فعل مختلفة تمامًا بين عشّاق الفنّ الحديث: يرى بعض الناس شخصيّات أو مشاهد مثيرة للاهتمام فيها، لكنّ البعض الآخر يرى فقط الطّلاء بشكل عشوائيّ على القماش. وجدنا أنّه كلّما رأى المشاركون بوضوح أنماطًا في هذه اللّوحات التّجريديّة، زاد احتمال تصديقهم لنظريّات المؤامرة وكذلك الظّواهر الخارقة للطّبيعة. على الرّغم من ضرورة إجراء المزيد من الأبحاث في هذا المجال، يبدو أنّ إحدى السّمات الأساسيّة للاعتقاد هي إدراك النّمط الوهميّ: الميل التّلقائيّ للنّاس إلى اكتشاف الأنماط في العشوائيّة.

الكشف عن القوّة العاملة

تشير آليّة الكشف عن **القوّة العاملة**–Agency-detection إلى ميل الناس إلى التّعرّف على القصد في تصرّفات الآخرين. وهكذا فإنّ الكشفَ عن القوّة العاملة يعني إثبات أنّ العمل المتعمّد قد ارتكب فعلًا عن قصد. كما هو الحال في تصوّر

النّمط، فإنّ قدرة الأشخاص على اكتشاف الفاعليّة تؤدّي وظيفتها بشكل كبير، وفي حالات كثيرة تنقذ الأرواح. تخيّل القيام بنزهة في حديقة وطنيّة بكندا، وبعد بضع ساعات من الاستمتاع بكلّ المناظر الطّبيعيّة الجميلة، ستقف فجأة وجهًا لوجه مع دبٍّ أشيب. في مثل هذه الحالات، فإنّ القدرة على اكتشاف العامل قد تنقذ حياتك. وإنّ إدراك أنّ الدّبّ قد تكون له نوايا معيّنة (مثل قتلك) قد يقودك إلى اتّخاذ الإجراء المناسب (على ما يبدو، لا تهرب، لأنّ الدّبّ أسرع؛ بدلًا من ذلك، تسلّق شجرة أو ابقَ هادئًا قدر الإمكان، فذلك أفضل). ومن المهمّ أيضًا، اكتشاف الفاعليّة، في مواقف أخرى عديدة. فكّر في موقف يُقتل فيه أحد المترجّلين بعد اصطدامه بسيّارة. هل فعل السّائق ذلك عن قصد، أم كان حادثًا مأسويًّا؟ يجد النّاس أنّ الإجابة على هذا السّؤال حاسمة لتحديد ما إذا كان يجب معاقبة السّائق أم لا.

تعدُّ آليّة الكشف عن القوّة العاملة جزءًا من قدرة عقليّة أوسع تسمّى «نظريّة العقل»: يستطيع النّاس تخيّل ما يفكّر فيه الآخرون ويشعرون به، وهكذا فهُم سبب تصرّف الآخرين بطريقة معيّنة. لا غنى عن نظريّة العقل للحصول على حياة اجتماعيّة ناجحة، لأنّها تمكّن النّاس من التّنبّؤ بالعواقب الاجتماعيّة لأفعالهم. لماذا لا يضحك النّاس عادة بصوت عالٍ في الجنازة؟ لأنّهم يمتلكون نظريّة العقل. يفهم النّاس أنّ الضّحك الّذي لا يمكن وقفه عند رؤية رفات الشّخص المتوفّى سيكون مؤلمًا جدًّا لمن هم في جزع لفراقه وحداد. وفضلا عن ذلك، يفهم الناس أنّه قد تكون لمثل هذا الضّحك عواقبُ طويلة المدى. سوف يضرّ ذلك بصداقاتهم، ويسيء إلى سمعتهم، وسوف يقلّل من احتمال أن يساعدهم الآخرون في المستقبل. بفضل نظريّتهم الذّهنيّة، يطوّر النّاس إحساسًا جيدًا بـ«متى يتوجّب عليهم التحدّث؟، ومتى يغلقون أفواههم؟، ومتى يعتذرون؟، ومتى يخفضون صوت الموسيقى قليلًا؟»، وما إلى ذلك. ثمّ إنّه يمكّن الأشخاص من فهم ما إذا كان الفعل قد ارتُكب عن قصدٍ أو عن طريق الخطإ.

ولكن مثلما يرتكب النّاس أخطاء في إدراك الأنماط، فإنّهم يرتكبون أيضًا أخطاء في اكتشاف القوّة العاملة: غالبًا ما يدرك النّاس أنّ الفاعليّة لا وجود لها. في دراسة كلاسيكيّة أجراها فريتزهايدر وماريان سيميل عام 1944، شاهد المشاركون لقطات ثنائيّة الأبعاد لمثلّثين ودائرة تتحرّك على شاشة ثمّ طُلب منهم وصف ما رأوه. في ذلك الوقت، لم تكن توجَد أجهزة كمبيوتر أو رسوم متحرّكة في غاية الواقعيّة، وكانت هذه اللّقطات أساسيّة كما هي. لكن هذه هي النقطة بالضّبط: على الرّغم من حقيقة أنّ هذه الأشكال الهندسيّة المبسّطة تمامًا ليست على قيد الحياة وليس لها عواطف أو نوايا حقيقيّة، فقد توصّل جميع المشاركين إلى قصص نسبت الفاعليّة إلى هذه الأرقام. على سبيل المثال، سيصف المشاركون كيف كان المثلّث الكبير غاضبًا من المثلّث الصّغير ممّا جعله عدوانيًّا، أو كيف كانت الدائرة غريبة وبدأت تتدحرج حول المثلّث الكبير (الذي كان عبارة عن مستطيل غير متحرّك على الشاشة). إذا تكرّمت فأَجْرِ التّجربة، يمكن العثور على اللقطات في كثير من مواقع الإنترنت، مثل http://trbq.org/play/ .

هل سبق لك أن كنت غاضبًا من الطقس بسبب هطول الأمطار خلال عطلتك؟ لا يتطلّب الأمر سوى القليل من التّعليم العلميّ لمعرفة أنّ الطّقس ليس له هدف، وبالنتيجة ليس عاملًا مقصودًا يمكن للمرء أن يلومه بشكل واقعيّ على أيّ شيء. المطر في عطلتك هو مجرّد حظّ سيّئ، أو في بعض الأحيان سوء تخطيط. ومع ذلك، فإنّ الكثير من النّاس يتعرّفون على الشّعور بالغضب من الطّقس، وقد اختبرت ذلك أيضًا. في مقابل ذلك، يدرك بعض النّاس بسهولة أنّ إرجاء القوّة العاملة إلى الطّقس وهمٌ، فالكثير من الأشخاص الآخرين يُعزون تغيّر الطّقس إلى عوامل لهم علاقةٌ بها، فيعتقدون مثلا أنّ هناك سببًا لسوء الأحوال الجوّيّة أثناء إجازتهم، كضرورة التّحدّث مع من يقاسمنا السّكن، لأنّنا لم نتحدّث حقًّا منذ فترة. في جميع العصور عُثِر على قوّة عاملة في الطقس: كان لدى المجتمعات القديمة آلهة متخصّصة في تفسير التّغيرات التي تطرأ على الطّقس، مثل زيوس

(الإغريق) وجوبيتر (الرومان) اللذين سيطرا على السماء، أو ثور (الفايكنج) الذي كانَ السّبب المحدّد للرّعد.

تحملُ الكثير من المعتقدات الخارقة للطّبيعة نوعًا من القوّة العاملة. الافتراض الشائع لكثيرٍ من ديانات العالم هو وجود إله أو أكثر بدوافع لمعاقبة النّاس أو مكافأتهم على أفعالهم. يفترض الإيمان بالأشباح أو الآخرة أنّ الأشخاص الذين ماتوا مازالوا يتمتّعون بالقوّة الفاعلة ولا يزالون في مكان مّا به مشاعر وأمانٍ ورغبات. تفترض الكهانة أنّ أحداثًا معيّنة من المفترض أن تحدث؛ بعبارة أخرى، هناك هدف في شكل مستقبل محدّد سلفًا. أخيرًا، غالبًا ما يفهم النّاس كلّ تجاربهم الجيّدة والسّيّئة في الحياة - مقابلة حبيب جديد، والحصول على عرض عمل جديد، ولكن أيضًا الإصابة بمرض خطير أو الاضطرار إلى المعاناة من وفاة أحد أفراد أسرته - من خلال التّأكيد على أنّ «الأشياء تحدث لسبب مّا»؛ بعبارة أخرى، شخص مّا أو شيء مّا خطّط عن قصد لكلّ ما يحدث وله أسباب لم نفهمها حتّى الآن. هذه كلّها أمثلة عن اكتشاف القوّة الفاعلة: تصور الغاية أو النّيّة من حودث شيءٍ مّا.

تعدُّ القوّة العاملة أيضًا سمة أساسيّة لنظريّات المؤامرة من خلال افتراض أنّ الفعل قد نُفّذ عن قصد. إذا تحطّمت طائرة بسبب عطل فنيّ أو خطإٍ بشريّ، فقد تؤكّد نظريّات المؤامرة أنّ منظّمة سرّيّة أسقطتها عمدًا، أو قد تفترض نظريّة المؤامرة أنّها كانت في الواقع حادثًا، ولكن بعد ذلك مازالت منظّمة سرّيّة تحاول عن قصد التّستّر على تفاصيل حسّاسة مثل شحنة غامضة كانت على متنها. نادرًا ما تفترض نظريّات المؤامرة عدم الكفاءة بين الجناة المزعومين في حالة الأزمة. يمكن للمرء أن يقول إنّ الأزمة الماليّة للعام 2008 كانت على الأقلّ بسبب نظام سيّئ فشل في حماية البنوك وتحصينها من العيوب البشريّة والجشع وقلّة الكفاءة. ولكن بدلًا من ذلك، يرى الكثير من نظريّات المؤامرة أنّ الأزمة الماليّة مجرّدُ مؤامرة من المصرفيّين الّذين لم يفكّروا على المدى القصير مطلقًا ولكن لديهم خطّة طويلة

الأجل لجعل الأزمة الماليّة تحدث بشكل متعمّد (أحد الأمثلة على ذلك نظريّة المؤامرة القائلة إنّ المصرفيّين الديمقراطيّين قد تسبّبوا بها. لقد أعجبوا بباراك أوباما في المؤتمر الدّيمقراطيّ في دنفر 2004 إلى درجة أنّهم تسبّبوا عمدًا في الأزمة لمساعدته على انتخابه في العام 2008). تفترض نظريّات المؤامرة وجود خطّة معقّدة ومفصّلة وذكيّة بين المتآمرين.

تشير الأبحاث إلى أنّ وجودَ القوّة الفعّالة في حالِ انعدام الدّلائل، يعدُّ مؤشّرًا جيّدًا لكلّ من المعتقدات الخارقة للطّبيعة ومعتقدات المؤامرة. في إحدى الحلقات الدّراسيّة تمّت دعوة طلّاب جامعيّين وزوارًا لمعرض الخوارق الطبيعيّة للمشاركة في النّدوة. شاهد هؤلاء المشاركون أفلامًا قصيرة عديدةً تتكوّن من نقاط ضوئيّة ولا تشكّل في بعض الحالات حركة بشريّة معتادة. وهكذا يمكن للمشاركين إدراك العامل القصدي في نقاط الضوء هذه كما يمكنهم إساءة فهمه. كشفت النتائج أنّه بالمقارنة مع طلّاب الجامعات، أبلغ زوّار معرض الخوارق عن المزيد من «الإنذارات الكاذبة» - أي إدراك وجودِ عاملٍ قصديّ بينما لم يكن هناك في الواقع أيّ شيء. مثّل هذا الاكتشاف الوهميّ للقوّة العاملة مؤشّرًا قويًّا على الاعتقاد الخارق. بالنسبة إلى نظريّات المؤامرة، تضمّنت إحدى الدّراسات مقياسين للكشف عن القوّة العاملة المفرطة النشاط. أحدهما كان التجسيم- Anthropomorphism (أو الأنسنة) ويشير إلى الميل إلى إسناد نوايا الإنسان وعواطفه إلى الحيوانات أو الأشياء أو المواقف. على سبيل المثال، إذا اعتقد المرء أنّ للرّيح عواطف، فإنّ المرء يجسّد الرّيح. كإجراء ثانٍ، رأى المشاركون في البحث لقطات-HeiderوSimmel الشهيرة وسُئلوا عن مدى أهمّيّة الأشكال. كان المشاركون الذين أدركوا وجود تأثير أكبر في كلا الإجراءين أكثر عرضة للإيمانِ بنظريّات المؤامرة. خلاصة الأمر، تشير الأدلّة إلى أنّ قدرة العقل الأساسيّة على اكتشاف العامل هي جزء من علم النّفس الأساسيّ للمعتقدات البشريّة.

الخلاصة

من خلال وصف العمليّات المعرفيّة التّلقائيّة لإدراك النّمط واكتشاف القوّة العاملة، وُظّف هذا الفصل لإلقاء الضّوء على القواسم المشتركة بين معتقدات المؤامرة وأشكال المعتقدات الأخرى. فأجريت، ضمن هذه الغاية، مقارنةٌ بينها وبين المعتقدات الخارقة للطّبيعة، الّتي لا يمكن أن تكون صحيحة بشكل مطلق، شأنها في ذلك شأن نظريّات المؤامرة. رغم ما بينهما من فروقات لا تنكر. ولئن كان الكثير من المعتقدات الخارقة للطّبيعة مستحيلًا، بالنّظر إلى قوانين الفيزياء، فإنّ الكثير من نظريّات المؤامرة ممكنٌ من النّاحية النظريّة على الأقلّ. وكما رأينا في الفصل الأوّل، فإنّ المؤامرات قد تكون حقيقة واقعة، ومثال ذلك، مؤتمر فانسي، ووترغيت. علاوة على ذلك، فإنّ المكوّنات الخمسة لنظريّات المؤامرة المذكورة في الفصل الأوّل لا تنطبق جميعها على أشكال أخرى من المعتقدات. في الفصل التّالي، سأركّز على الصّفات الّتي تميّز الاعتقاد بنظريّات المؤامرة من المعتقدات الأخرى. سأسلّط الضّوء بشكل محدّد على السّمة الأكثر مركزيّة في أيّ نظريّة مؤامرة: التّورّط في مؤامرة مع مجموعة اجتماعيّة معادية وقويّة وربّما خطيرة.

الجذور الاجتماعيّة لنظريّات المؤامرة

في 13 تشرين الثاني / نوفمبر 2015، صُدم العالم بالهجمات الإرهابيّة في باريس. وقد وقعت تلك الهجمات في مواقع متعدّدة، لكنّ أكبر عدد من الضّحايا سقط في مسرح باتاكلان، حيث تجمّع حشد من النّاس لمشاهدة حفلة موسيقيّة لفرقة إيجلز أوف ديث ميتال. دخل ثلاثة إرهابيّين إلى المسرح ببنادق هجوميّة من طراز-AKM وأطلقوا النّار على الحاضرين. مات ما مجموعه 89 شخصًا في باتاكلان تلك الليلة، فيما نجا أعضاء الفرقة من الهجوم، على الرغم من مقتل أحد موظّفيهم الّذي يتولّى المبيعات. في المقابلات الصّحفيّة التي تلت تلكَ الواقعة، كان أعضاء الفرقة في حالة صدمة بسبب ما حدث. لم يكن ذلكَ خطأ الفرقة بطبيعة الحال، وعبّر أناسٌ كثيرون من جميع أنحاء العالم عن تعاطفهم معهم. لكنّ هذا التّعاطف تبدّد بعد بضعة أشهر. فقد أعلن مغنّي الفرقة الرّئيسيّ - جيسي هيوز - في مقابلات عديدة عن مؤامرة مفادها أنّ عناصر الأمن في باتاكلان متورّطون في الهجمات. وبحسب هيوز، فإنّ الهجمات كانت من داخل الباتاكلان، وتعمّد عناصر الأمن مساعدة الإرهابيّين على دخول المبنى. نتيجة لهذه المزاعم، أُلغيت العروض المختلفة للفرقة في المهرجانات الفرنسيّة في العام 2016، ولم يعد هيوز مرحَّبًا به بعد ذلكَ في باتاكلان.

من السهل الحكم على هيوز من مسافة بعيدة، فادّعاءاته سخيفة بالفعل. لكن على الأقلّ نشأت نظريّات المؤامرة لديه نتيجة صدمةٍ حقيقيّة. لقد شهدَ في تلك

اللّيلة المصيريّة موتَ جماهيرِه المخلصة بالرّصاص أمام عينيهِ، وكان عليه أن يركض للنّجاة بحياته، واضطرّ إلى الدّخولِ في حداد على موظّف في فرقته فَقَد حياته في تلكَ الحادثة. لقد رأينا في الفصول السّابقة أنّ المشاعر البغيضة مثل الخوف وعدم اليقين يمكن أن تحفّز على نشوء نظريّات المؤامرة، وكان لدى هيوز كلّ الأسباب لتجربة هذه المشاعر. ربّما يكون الأمر الأكثر إثارة للاهتمام هو عدد الأشخاص الّذين لم يضطرّوا إلى الفرار للنّجاة بحياتهم في تلك اللّيلة، نتيجة لإيمانهم بنظريّة المؤامرة حول هذا الحدث. في صباح اليوم التّالي لهجمات باريس، راجعت ما نُشِر في كثير من مواقع نظريّات المؤامرة الهولنديّة. وكما هو متوقّع، كان الويب مليئًا بالفعل بنظريّات المؤامرة، ومن ذلك اتّهام الحكومة الفرنسيّة بأنّها اقترفت عمليّة زائفة- false flag[39]. نُشر معظم نظريّات المؤامرة هذه من قبل أشخاص كانوا بأمان في هولندا، ومن الافتراض المعقول أنّ الغالبيّة منهم لم يعرفوا أيًّا من الضحايا بشكلٍ شخصيّ.

هذه الميزة شائعة في كثير من نظريّات المؤامرة، إذ لا يتعيّن علينا أن نؤذي أنفسنا في حدث معيّن للاعتقاد بأنّ مؤامرة سرّيّة هي المسؤولة عن ذلك. عندما اختفت رحلة الخطوط الجوّيّة الماليزيّة رقم 370، ظهرت مجموعة من نظريّات المؤامرة في جميع أنحاء العالم، ولم يخلُ بعضها من غرابة، ففي محادثة مع صحفيّ في ذلك الوقت، كان عليّ في الواقع الرّدّ على سؤال حول ما فكّرت فيه بشأن النّظريّة الّتي تقول إنّ هوليوود وراء الاختفاء من أجل تصوير موسم حقيقيّ من سلسلة- Lost. أراهنُ بكلِّ ثقةٍ أنّ الغالبيّة العظمى من الأشخاص الذين يؤمنون بنظريّات المؤامرة حول اختفاء الخطوط الجوّيّة الماليزيّة لم تكن لديهم معرفة شخصيّة بأيّ من

(39) . وردت في النّص الأصلي falseflag وهي إشارة إلى مصطلح الرّاية المزيّفة. وقد استخدم هذا المصطلح في البداية في الحروب البحريّة عندما يتمّ توظيفُ راية معيّنة لا تعبّر عن الهويّة الحقيقيّة للسفينة بغاية خداع الأعداء. يطلقُ كمصطلحُ الرّاية المزيّفة أيضًا على العمليات التي تتمّ في أوقات السّلم الاجتماعي وعادة ما يتمّ اتهام المؤسسات المدنية أو أجهزة الدّولة أو وكالات حكومية سرّية بحجّة أنها تحاول إخفاء الحقيقة وتنفيذ أجنداتها. (المترجم).

الرّكّاب الذين كانوا على متن الطّائرة. وفي مقابل ذلك فعلى الرّغم من مقتل أشخاص كثيرين خلال هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابيّة، فإنّه لم يكن من الضّروريّ أن تفقد قريبًا أو صديقًا مقرّبًا في ذلك اليوم لتصديق نظريّات مؤامرة 11 سبتمبر. ومع ذلك، فليست كلّ الأحداث الّتي تسبّب خسائر قاتلة في العالم تثير نظريّات المؤامرة بين الناس في أماكن أخرى منه. من ناحية أخرى، يجب ألّا نؤذي أنفسنا أو نعرف أيًّا من الضّحايا شخصيًّا حتّى نؤمن بنظريّات المؤامرة؛ ولكن من ناحية أخرى، لا يؤدّي كلّ حدث مؤلم في العالم، بشكل لا لبس فيه، إلى نظريّات المؤامرة.

في العام 1994 وقعت الإبادة الجماعيّة في رواندا. وفي غضون أسابيع قليلة فقط، ذبح المسلّحون الهوتو ما يقدّر بنحو 900000 من التوتسي والهوتو بالمناجل (انخفض حوالي 20 ٪ من إجماليّ السّكّان الرّوانديّين في ذلك الوقت). من فضلكم، توقّفوا لحظة لإدراك معنى هذا الشكل من الإبادةِ - لقد ذُبح ما يقرب من مليون من الرجال والنّساء والأطفال الأبرياء مثل الحيوانات في غضون أسابيع قليلة فقط. قد يكون من غير اللّائق أن نوازن بين المآسي، لأنّها واحدة في خاتمة المطاف، غير أنّ الإبادة الجماعيّة في رواندا، استثنائيّة بمقياس الجثث الّتي أُحصِيت، ناهيك عن الّذين قضوا بسبب الإيدز، أو من تعرّضوا لأبشع أشكال الاغتصاب. إنّ عدد ضحايا تلك الإبادة في رواندا، هو ثلاثمائة أضعاف عدد ضحايا هجمات الـ 11 من سبتمبر، وهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسة وستّين ضحيّة (3765) لقد كان عدد الجثث في الإبادة الجماعيّة في رواندا ببساطة خارج النطاق. من المفترض بالنّظر إلى ما تقدّم،أن يؤدّي مثل هذا الحادث المروّع إلى خروج نظريّات مؤامرة كبيرة في جميع أنحاء العالم. حقّا؟

خلافا للمتوقّع فإنّ تصفّح مواقع الويب الخاصّة بنظريّة المؤامرة الأوروبيّة يكشف لنا شحّ نظريّات المؤامرة حول الإبادة الجماعيّة في رواندا، من المؤكّد أنّني لم أذهب إلى رواندا من قبل ولا يمكنني إلّا أن أتخيّل أنّ نظريّات المؤامرة حول هذا

الحدث من المرجّح أن تكون سائدة بين سكّان رواندا. في الواقع، يعتبر إنكار الإبادة الجماعيّة جريمة في رواندا، ممّا يشي بوجود ما يزعج السّلطات الرّوانديّة من نظريّات المؤامرة بين مواطنيها، وقد استدعى هذا اتّخاذ إجراءات قانونيّة رادعة. شأنها في ذلك شأن ما تتّخذه السّلطات الألمانيّة من إجراءات تجاه من ينكر الهولوكست. لكن لماذا لا نرى بعد موقعًا إلكترونيًّا يعجّ بنظريات المؤامرة الكبرى حول الإبادة الجماعيّة في رواندا بين الأوروبيّين؟ قد يقول المرء إنّ الإبادة الجماعيّة وقعت في مكان آخر من العالم، لكنّ هذا التّفسير ليس مرضيًّا تمامًا. الهجمات الإرهابيّة في الحادي عشر من سبتمبر لم تحدث أيضًا في أوروبّا، ولكن حتّى يومنا هذا يؤمن الكثير من الأوروبّيين بنظريّات مؤامرة 11 سبتمبر، وسيواصلون ذلك في العقود القليلة القادمة. بالنسبة إلى الأوروبّيين، كانت كلّ من الإبادة الجماعيّة في رواندا والهجمات الإرهابيّة في الحادي عشر من سبتمبر أحداثًا مأسويّة وقعت في أماكن أخرى من العالم. ما الذي يحدّد مدى انزعاج النّاس من حالة الأزمة، وإلى أيّ مدى يفسّر النّاس حالة التّعامل مع نظريّات المؤامرة؟

يمكن العثور على تفسير لهذا التّناقض في حقيقة بسيطة ولكنّها مؤسفة حول الطّبيعة البشريّة، مدارها أنّ النّاس يميلون إلى تصنيف العالم الاجتماعيّ إلى «نحن» مقابل «هم» – والنّاس قلقون في الغالب عندما نكون ضحايا. على الرّغم من أنّ الأمريكيّين والأوروبّيين يحبّون تأكيد كيفيّة اختلافهم، فإنّ ثقافاتهم في الواقع متشابهة تمامًا في أبعاد عديدة، ويسافر المواطنون بانتظام، من العالم الجديد إلى القارّة العجوز، والعكس بالعكس. عندما يقع هجوم إرهابيّ في الولايات المتّحدة، يشعر مواطنو الاتّحاد الأوروبّي بذلك كما لو أنّنا «نحن» نتعرّض للهجوم (والعكس صحيح)، مع العلم أيضًا أنّه في المرّة القادمة يمكن أن تكون دولة عضو في الاتّحاد الأوروبي هي الهدف. وبالمثل، كثيرًا ما يطير مواطنو الاتّحاد الأوروبيّ في الطائرات ويسافرون بانتظام إلى أستراليا أو أجزاء من آسيا. عندما تختفي رحلة لشركة حديثة مثل الخطوط الجويّة الماليزيّة – التي تعمل من معظم المطارات الدوليّة في الاتّحاد

الأوروبيّ - في ظلّ ظروف غامضة، فإنّها تبدو أيضًا وكأنّها حدث وثيق الصّلة بالذات بالنّسبة إلى الأوروبّيين: «قد أسافرُ عبرها أنا أو عائلتي أو أصدقائي!» مرّة أخرى، يمكننا أن نتعامل مع مصير الضحايا، حتّى عندما نعلم منطقيًّا أن فرصة الوقوع ضحيّةً لتحطّم طائرة أقلّ بكثير من معظم المخاطر الأخرى الّتي نواجهها في حياتنا اليوميّة. ولكن بالرّغم من أنّ معظم الأوروبّيين مرعوبون من أنباء ذبح الهوتو للتوتسي، فإنّهم يرون أيضًا أنّ مثل هذا الحدث يقع في عالم مختلف. يجد مواطنو الاتّحاد الأوروبي صعوبة في تخيّل وقوع مثل هذا الحدث في بلدهم، ويعتبرون أنفسهم مختلفين إلى حدٍّ كبير عن كلّ من الضحايا والجناة. «ما حدث لهم أمر مروّع – نحنُ سعداء جدًّا لأنّنا نعيش هنا».

وهكذا، فإنّ الفكرة الأساسيّة هي أنّه على الرّغم من أنّ المرء لا يحتاج إلى أن يكون ضحيّة في حدث مّا ليبحث عن تفسيرات تآمريّة، فإنّه بحاجة إلى تجربة حدث مّا على أنّه وثيق الصّلة بذاته. يمكن إثبات هذه الصلة الذاتيّة من خلال الشعور بالتّشابه أو التّماثل مع الضّحايا. يمكن للناس أيضًا ربط هويّتهم بالضّحايا من خلال تخيّل أنّهم هم أنفسهم يمكن أن يكونوا ضحايا حدث مؤلم مثل الضّربة الإرهابيّة، وهذا يجعل الحدث أكثر رعبًا ويزيد من ميل النّاس إلى أخذ منظور الضّحايا، وتقمّصهم أحيانا حدّ التّماهي. هذه الرّوابط الاجتماعيّة المتصوّرة مع الضّحايا تثبّت رغبة بين البشر لفهم الحدث - فهم قلقون، يتوقون إلى معرفة ما حدث. وكما هو موضّح في الفصل الثاني، فإنّ دوافع صنع المعنى هذه تضع أسس نظريّات المؤامرة. لكن عندما لا يربط الناس هويّتهم بالضّحايا، فإنّهم يكونون أقلّ عرضة لتجربة هذه الرّغبات المنطقيّة. قد يتملّكهم الرّعب جرّاء ما حدث ولكنّهم يتلهّون عنه، ليس من باب اللّامبالاة، ولكن من باب التّمويه على الذّات، الّتي لا تجد بينها وبين الحدث مشتركا يدعوها إلى القلق أو إلى معايشة التّجربة معايشة ذهنيّة، فيضبطون التّلفاز على الرّسوم المتحرّكة، ويركّزون انتباههم على شيء آخر، وكنتيجة لذلك، فإنّ نظريّات المؤامرة هنا، تظلّ أقلّ احتمالًا.

ينطبق التّمييز بين «نحن» مقابل «هم» أيضًا على البنية الأساسيّة لنظريّة المؤامرة. ففي نظريّة المؤامرة النموذجيّة، «هم» مؤامرة لأشخاص يخطّطون لإيذاء «نحن». المؤامرة من حيث التعريف هي تحالُف أو مجموعة تتكوّن من سياسيّين ومؤسّسات سياسيّة ورؤساء تنفيذيّين وشركات كبرى ومجموعات عرقيّة أو دينيّة وما شابه ذلك. في نظريّات المؤامرة التي هي محور هذا الكتاب، فإنّ المؤامرات لا تتآمر فقط ضدّ مدرك شخصيًّا - هي تتآمر ضدّ مجموعة أكبر من النّاس، مثل المواطنين أو الموظّفين أو المرضى أو العرق أو الدين. أحد نتائج البحث الشائعة هو أنّه كلّما شعر الأشخاص الأقوياء بالغربة عن السّياسة، ازداد احتمال تصديقهم لنظريّات المؤامرة السياسيّة[40]. لماذا تكون هذه هي الحال؟ لأنّ الأشخاص الّذين يشعرون بالغربة عن السّياسة ينظرون إلى السّياسيّين على أنّهم «هم»، «ليسوا نحن». تدور نظريّات المؤامرة حول «نحن» الضّحايا و «هم» المؤامرة القويّة والشّرّيرة.

يشير هذا إلى أنّ نظريّات المؤامرة جزءٌ من صراع مع مجموعات أخرى: ففي النّهاية، تفترض هذه النّظريّات أنّ مجموعة مختلفة تتآمر من أجل إلحاق الضّرر بمجموعة أخرى. في واقع الأمر، نجدُ أنّ نظريّات المؤامرة شائعة في الصّراع بين المجموعات. والشّكل النّهائيّ لذاك الصّراع بينها هو الحرب، وقد لاحظ المؤرّخون أنّه في جميع الحروب التي جدّت عبر التاريخ الحديث تقريبًا، كان لكلا طرفي الصراع نظريّات مؤامرة قويّة حول المجموعة المعادية[41].

من أجل فهم الجذور الاجتماعيّة لنظريّات المؤامرة، سأناقش في ما يلي كيف ترتبط سمتان مشتركتان للصّراع بين المجموعات بمعتقدات المؤامرة. السّمة

.(40)Müller, J.-W. (2016). Whatispopulism? Philadelphia, PA: University of PennsylvaniaPress.

.(41)Neuberg, S. L., Kenrick, D. T., & Schaller, M. (2011). Human threat management systems: Self-protection and disease avoidance. Neuroscience and Biobehavioral Reviews, 35 , 1042–1051.

الأولى هي المدى الّذي يربط فيه النّاس هويّتهم بالمجموعة. كلّما ازداد ارتباط الأشخاص بمجموعة معيّنة، ازداد قلقهم عندما يقع أفراد هذه المجموعة ضحيّة، وكلّما قلّ قبولهم من المجموعات الأخرى المتنافسة. على هذا النّحو، فإنّ ربط هويّة المرء بجماعة – وهو ربط ينعكس على سبيل المثال في المشاعر القوميّة وتفوّق المجموعة وتحديد الهويّة وما شابه – قد يزيد من مدى شكّ النّاس في الجماعات الأخرى، ممّا يسهم في بروز نظريّات تآمريّة. السّمة الثّانية هي الشّعور بالتّهديد خارج الجماعة. لا يشعر الناس بالقلق على كلّ مجموعة أخرى لمجرّد كونها مختلفة. في الواقع، يمكن في بعض الأحيان اعتبار المجموعات المختلفة إيجابيّة ومفيدة، على سبيل المثال في تعاون تجاريٍّ، أو كشريك محتمل في تحالف مّا. ولكن في الصّراع بين المجموعات، توجَد مجموعة خارجيّة تشكّل تهديدًا مباشرًا لرفاهية المجموعة الخاصّة – وبعبارة أخرى، يوجد تحالف معادٍ، وهو جانب مركزيّ في أيّ نظريّة مؤامرة.

ربط هوّية المرء بالمجموعة

طرحتُ في الفصل السّابق تصوّرًا مباشرًا حول الجذور الاجتماعيّة لنظريّات المؤامرة: كلّما ازداد ارتباطُ النّاس بهويّتهم الخاصّة داخل مجموعة معيّنة، ازداد احتمال إيمانهم بنظريّات المؤامرة، عندما يقع أفراد هذه المجموعة ضحيّة. في سلسلة من التّجارب مع الأستاذ بجامعة ليدن إريك فان ديك، اختبرنا هذه الفكرة الأساسيّة[42]. أجرينا سلسلة من التّجارب على بعض المشاركين الهولنديّين كي نختبر درجة التّرابط بين أفراد تلك المجموعة. من الناحية المثالية، تطلّب بحثنا بلدًا في مكان آخر من العالم نادرًا (إن وجد) في الأخبار الهولنديّة، ولا يسافر الهولنديّون إليه عادةً، ومن غير المرجّح أن يعرف المشاركون لدينا الكثير عن الثقافة الفعليّة فيه

(42). Oliver, J. E., & Wood, T. (2014). Medical conspiracy theories and health behaviors in the United States. JAMA Internal Medicine, 174 , 817–818.

أو عن الوضع السياسيّ. في النهاية، توصّلنا إلى البنين: دولة صغيرة في شمال غرب إفريقيا. في دراستنا البحثيّة، كان المشاركون يقرؤون مقالًا مزيّفًا في صحيفة حول الأحداث الّتي يُفترض أنّها قد وقعت في البنين.

لماذا التّركيزُ على بلدٍ قد يكونُ المشاركون، على غير دراية بأمره؟ الفائدةُ المهمّة من هذه المقاربة هي أنّهُ يمكننا البدء مع مجموعة بعينها لا تربطها صلةٌ بهوّية المشاركين، وسنرى لاحقًا ما إذا تمّ تحفيز المشاركين كي يكونوا مهتمّين شخصيًّا بهذه المجموعة. يتضمّن أفضل اختبار لفكرتنا مقارنة بين الأشخاص الذين لا يجدون علاقات شخصيّة قويّة بمجموعة معيّنة - وبشكل عامّ، من الأسهل بكثير جعل الأشخاص يربطون هويّتهم بمجموعة غير مألوفة من قبل بدلًا من جعل الناس يشعرون بعدم المبالاة حول مجموعة يختبرون معها روابط قويّة. لدى علماء النفس الأكاديميّين تدخّلات مختلفة في مجموعة أدوات البحث الخاصّة بهم، وهي أدوات يمكن أن تحفّز الناس على ربط هويّتهم بمجموعة مختلفة. أحد هذه التدخّلات هو تبنّي المنظور، وهي طريقة معروفة لخلق مشاعر التعاطف والتّماهي. أخذ المنظور يعني أنّ الشخص يحاول بنشاطٍ فهمَ الموقف من منظور شخص آخر. يمكن أن يؤدّي تبنّي هذا المنظور، في بعض الظّروف، إلى تحسين العلاقات بين المجموعات المختلفة وتقليل الصّور النّمطيّة[43]. في سياق بحثنا، أخبرنا جميع المشاركين أنّهم سيقرؤون مقالًا في إحدى الصّحف عن الأحداث الّتي تحدث في البنين، لكنّنا أعطينا نصف المشاركين فقط تعليمات حول تبنّي وجهة النّظر. على وجه التّحديد، طلبنا من هؤلاء المشاركين أن يحاولوا أوّلًا لمدّة دقيقة أَخذَ وجهة نظر مواطني بنين وأن يتخيّلوا أنّهم ولدوا في بنين ونشؤوا فيها. طُلب منهم الاستمرار في أخذ هذا المنظور أثناء قراءة المقال. النّصف الآخر من المشاركين شكّلوا المجموعة الضّابطة. بدلًا من تعليمات أخذ وجهات النّظر، طُلب من

(43).Park, C. L. (2010). Making sense of the meaning literature: An integrative review of meaning making and its effects on adjustment to stressful life events. Psychological Bulletin, 136 , 257–301.

هؤلاء المشاركين قراءة المقالة بموضوعيّة قدر الإمكان.

وصوّر المقال الذي قرأه المشاركون لاحقًا زعيمًا سياسيًّا معارضًا في بنين كان ذا حظوة في نسب التّصويت ومن المرجّح أن يفوز في الانتخابات المقبلة. ولكن بعد ذلك تورّط زعيم المعارضة في حادث سيّارة مروّع. هنا، قدّمنا للمشاركين نسخة واحدة من نسختين مختلفتين من مقال الصّحيفة، وهي نسخة تختلف في مدى تهديد هذا الحدث للمواطن العاديّ في بنين. قرأ نصف المشاركين أنّ زعيم المعارضة مات في الحادث وأنّ الانتخابات ستؤجّل حتّى إشعار آخر (عواقب وخيمة). قرأ النّصف الآخر من المشاركين أنّ زعيم المعارضة نجا بأعجوبة من الحادث ولم يكن لديه سوى بعض كدمات. في هذه النّسخة الأخيرة من المقال الصّحفيّ، ستجري الانتخابات كما هو مخطّط لها (عواقب صغيرة). ثمّ بعد قراءة المقال، سألنا المشاركين عن معتقداتهم التّآمريّة في ما يتعلّق بهذا الحدث. هل كان هذا الحادث في الواقع محاولة اغتيال منظّمة؟ هل خُرّبت الفرامل؟ هل كانت حكومة بنين الحاليّة وراء هذا الحادث؟

من المنطقيّ أنّ حدثًا كهذا سيكون أكثر إزعاجًا للمواطنين المحلّيّين إذا مات زعيم المعارضة في الحادث منه لو أنّه نجا. لذلك توقّعنا أنّ العواقب الكبيرة (وفاة زعيم المعارضة) ستؤدّي إلى معتقدات مؤامرة أقوى من العواقب الصّغيرة (بقاء زعيم المعارضة). أكدت نتائجنا ذلك، ولكن بشروط: وحدهم المشاركون الّذين أخذوا وجهة نظر مواطني بنين أظهروا هذا الانحياز في التّناسب وآمنوا بنظريّات المؤامرة بقوّة خاصّة إذا مات زعيم المعارضة. المشاركون الّذين طُلب منهم أن يكونوا موضوعيّين أثناء قراءة المقال لم يؤمنوا بنظريّات المؤامرة بقوّة أكبر بموت زعيم المعارضة أكثرَ من إيمانهم إذا كان زعيم المعارضة على قيد الحياة. على ما يبدو، فإنّ ربط هويّة الفرد بمجموعة غير مألوفة سابقًا يزيدُ من نظريّات المؤامرة ردًّا على المعلومات الّتي تفيد بأنّ هذه المجموعة كانت تحت التّهديد.

في دراسة لاحقة، اختبرنا سبب حدوث هذا التأثير. قدّمنا للمشاركين مقالًا صحفيًّا مزيّفًا مختلفًا نسبيًّا، هذه المرّة عن ناشط سياسيّ بورونديّ مات جرّاء تسمّم غذائيّ. كشفت نتائجنا أنّ أخذ وجهة نظر مواطني بوروندي مثّل حافزا لفهم الحدث، فقد أفاد المشاركون بأنّهم يشعرون بقلق أكبر، وأنّ انشغالهم بالأمر قد تعاظم، وأكّدوا شعورهم بمزيد من الانخراط العاطفيّ، وأنّ لديهم رغبة أقوى في التّحقيق في الحادث بدقّة. وقد لاحظنا عند المجموعة إيمانا متزايدا بالنّظرية القائلة إنّ النّاشط قد سُمِّم عمدًا بواسطة مؤامرة. باختصار، كلّما زاد ربط هوّيّة النّاس الخاصّة بمجموعة معيّنة، تفاقم دافعهم لفهم الحدث الذي يقع فيه أحد أفراد تلك المجموعة ضحيّة – ممّا يضع الأسس لنظريّات المؤامرة.

إنّ ربط هويّة المرء بالمجموعة سيفٌ ذو حدّين عندما يتعلّق الأمر بالأخلاق. ومن ناحية أخرى، فإنّ التّعرّف على مجموعة يحمل نتائج اجتماعيّة إيجابيّة عديدةً. إنّه يحفّز النّاس على مساعدة أعضاء المجموعة الآخرين، لتقديم تضحيات نيابة عن المجموعة، والتّصرّف ضمن المصلحة الجماعيّة الطويلة الأجل، بدلًا من المصلحة الذّاتيّة القصيرة المدى. دون التّماهي مع المجموعات الاجتماعيّة، سيهتمّ النّاس فقط بأنفسهم وأقاربهم. وفضلا عمّا تقدّم، ثمّة أشكال «صحّيّة» لتحديد الهويّة لا تعني بالضّرورة تصوّرًا سلبيًّا للمجموعات المختلفة. ولكن من ناحية أخرى، يمكن أن تتّخذ الرّوابط الشّخصيّة القويّة مع المجموعة أشكالًا ضارّة إلى حدّ مّا، لاسيّما عندما تنطوي على الشّعور بأنّ مجموعة الفرد متفوّقة على المجموعات الأخرى. على وجه التّحديد، قد يشعر النّاس أحيانًا بالفخر تجاه مجموعتهم إلى درجة أنّها تعكس النّرجسيّة الجماعيّة، أو ضربًا من الاعتقاد المبالغ فيه بتفوّق المجموعة الخاصّة. غالبًا ما تنشر الحركات القوميّة تفوّقًا جماعيًّا، مدّعية في العادة أنّ بلدها هو «أعظم بلد على وجه الأرض». يمكن أن تكون هذه النّرجسيّة الجماعيّة ضارّة: عندما يعتقد النّاس أنّ مجموعتهم متفوّقة، فهذا يعني بحكم التّعريف تقريبًا اعتقادًا بأنّ المجموعات الأخرى أقلّ شأنا. قد تتضمّن

تصوّرات الدّونية هذه الاعتقادَ بأنّ المجموعات الأخرى أدنى أخلاقيًّا، إلى درجة أنّها ستكون جزءًا من مؤامرات شرّيرة لإيذاء المجموعة «الكبرى».

في دراسة أجريت في بولندا، حقّق باحثان في العلاقة بين النّرجسيّة الجماعيّة (في هذه الحالة، الإيمان بعظمة بولندا) وتصوّرات النّاس عن المجتمع اليهوديّ[44]. كان هؤلاء الباحثون مهتمّين بشكل خاصّ بالسّؤال عن كيفيّة توقّع تفوّق بولندا بمعاداة السّاميّة. انتشرت معاداة السّاميّة عبر التّاريخ، ولا تزال منتشرة في أماكن مختلفة من العالم. وهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنظريّات المؤامرة حول الشّعب اليهوديّ. من الأمثلة على نظريّات المؤامرة اليهوديّة الشّائعة أنّ اليهود في جميع أنحاء العالم يتآمرون لتحقيق الهيمنة على العالم، أو أنّ اليهود لديهم عادة التآمر بشكل متكرّر للوصول إلى جميع أنواع الأهداف الخبيثة - الأفكار التآمريّة الّتي روّجها هتلر أيضًا قبل الحرب العالميّة الثانية وأثناءها. أشارت نتائج هذه الدراسة إلى أنّ الاعتقاد بتفوّق بولندا تنبّأ بقوّةٍ بنظريّات المؤامرة اليهوديّة هذه، بالإضافة إلى الاعتقاد بأنّ بولندا تتعرّض باستمرار للتّهديد من قبل مجموعات أخرى. نظريّات المؤامرة هذه وتصوّرات التهديد تنبّأت لاحقًا بما يسمّى معاداة السّاميّة.

باختصار، فإنّ ربط هويّة الفرد بجماعة مّا، يحفّز نظريّات المؤامرة عندما يقع أحد أفراد تلك المجموعة ضحيّة؛ وعلاوة على ذلك، فإنّ إدراك المرء للمجموعة الخاصّة به على أنّه متفوّق يحفّز نظريّات المؤامرة حول المجموعات الأخرى الّتي تعتبر محدّدة أخلاقيًّا. تؤكّد هذه الأفكار الجذورَ الاجتماعيّة لنظريّات المؤامرة. والنّتيجة هي أنّه، يا للمفارقة، غالبًا ما تكون نظريّات المؤامرة مدفوعة بدوافع اجتماعيّة: فهي تنبثق من القلق بشأن رفاهيّة أعضاء المجموعة الآخرين أو ضحايا حدث بعيد المدى، بشرط أن يتمكّن المدركون بطريقة مّا من الارتباط بهم. لذلك قد تكون نظريّات المؤامرة نتيجة لإشارة تحذير اجتماعيّة: شعور مريب يشير إلى أنّ

---

(44) .Pipes, D. (1997). Conspiracy: How the paranoid style flourishes and where it comes from. New York, NY: Simon & Schuster.

مجتمع الفرد يتعرّض للتّهديد أو الخداع من قبل جماعة خارجيّة معادية. لكنّ الدّافع الاجتماعيّ الإيجابيّ ليس له دائمًا عواقب اجتماعيّة إيجابيّة. إذا كانت نظريّات المؤامرة حول مجموعة مختلفة مضلّلة، فقد يؤدّي ذلك إلى إلقاء اللّوم أو حتّى إلى إيذاء الأبرياء الّذين لم يحالفهم الحظّ بما يكفي لاعتبارهم جزءًا من المؤامرة المشتبه بها.

تهديد خارج الجماعة

الافتراض الثّاني الّذي ينبع من الجذور الاجتماعيّة لنظريّات المؤامرة هو أنّ الشّعور بتهديد الجماعة الخارجيّة مهمٌّ. هذا يعني أنّ النّاس لا يشكّلون معتقدات تآمريّة بشكل عشوائيّ حول كلّ مجموعة خارجيّة: وحدها المجموعات الّتي تعتبر تهديدًا لمجتمع المتصورّ هي الّتي تخضع لتنظير المؤامرة. يساهم هذا في جميع الاحتمالات في حقيقة أنّ السياسيّين هدفٌ متكرّر لنظريّات المؤامرة. لا يقتصر الأمر على عدم ثقة المواطنين في كثير من الأحيان بالفئة الاجتماعيّة الواسعة من السّياسيّين؛ السّياسيّون أيضًا أقوياء جدًّا ويتّخذون قرارات تؤثّر في حياة الكثير من النّاس. هذه وصفة لتجربة تهديد جماعة خارجيّة: مجموعة مختلفة قويّة ولا يمكن الوثوق بها، ممّا يجعلها خطوة صغيرة لافتراض أنّها قد تتآمر لإحداث بعض الأذى الحقيقيّ. الحجّة نفسها تنطبق على حكومة الولايات المتّحدة، الجاني النّموذجيّ في الكثير من نظريّات المؤامرة. إذا شعر المرء بعدم ثقة أساسيّ في حكومة الولايات المتّحدة فمن السّهل أن يشعر، بناءً على ذلك، بالتّهديد من قبل هذه المؤسّسة. وفي خاتمة المطاف فإنّ حكومة الولايات المتّحدة قويّة ويمكن أن تسبّب الكثير من الضّرر. تشير الأبحاث بالفعل إلى أنّ النّاس بشكل خاصّ يشكّلون نظريّات

مؤامرة حول الجماعات الخارجيّة الّتي يعتقدون أنّها قويّة[45].

توضّح سلسلة من الدّراسات الّتي أُجرِيت في إندونيسيا بشكل جيّد كيف يمكن أن تنتج نظريّات المؤامرة عن الجمع بين ربط هويّة الفرد بمجموعة داخليّة من جهةٍ والشعور بالتهديد خارج المجموعة من جهة ثانية[46]. لقد كانت خلفيّة هذه الدراسات هي كيفيّة إدراك المواطنين الإندونيسيّين لمشكلة الإرهاب في بلادهم. استُهدفت إندونيسيا بضربات إرهابيّة مختلفة في العقود الماضية، ومن الأمثلة المعروفة جيّدًا "تفجيرا بالي" اللّذان وقعا في عامي 2002 و2005. وبينما استهدفت هذه الأمثلة الأخيرة في الغالب السّيّاح الأجانب، ركّزت هجمات إرهابيّة كثيرة أخرى على المواطنين الإندونيسيّين أو على ضبّاط الشّرطة. يعدّ الاضطرار إلى التّعرّض لهجمات إرهابيّة منتظمة مصدرًا محتملًا للخوف وعدم اليقين بين المواطنين الإندونيسيّين، وهكذا فإنّ هذه الأحداث تزيد من احتمال ظهور نظريّات المؤامرة بين السّكّان الإندونيسيّين.

درس الباحثون كيف سيفكّر الإندونيسيّون في نظريّة المؤامرة التّالية: هل تآمر الإرهابيّون الّذين ارتكبوا هجمات في إندونيسيا مع الغرب؟ تصوّر نظريّة المؤامرة هذه المجتمع المسلم على أنّه المجموعة الضّحيّة (بعد كلّ شيء، فهم ليسوا ضحايا فقط ولكنّهم يتحمّلون اللوم أيضًا على الهجمات) والعالم الغربيّ بوصفه مجموعة مذنبةً (هم بالفعل وراء الهجمات). في دراسة أولى، سأل هؤلاء المؤلّفون المشاركين عن مدى ارتباطهم بالمسلمين، لتقييم مدى ربط المشاركين هويّتهم بمجموعة الضّحايا. وطلبوا منهم تقييم مدى تهديد العالم الغربيّ للمسلمين (كمثال على ذلك "في المستقبل، سيستمرّ العالم الغربيّ في تهديد الهويّات الإسلاميّة"). أخيرًا، سألوا

(45).Shermer, M. (2011). The believing brain: From ghosts and gods to politics and conspiracies – How we construct beliefs and reinforce them as truths . New York, NY: Henry Holt.

(46).Skinner, B. F. (194B). 'Superstition' in the pigeon. Journal of Experimental Psychology, 38 , 168–172.

المشاركين عن رأيهم في النّظريّة القائلة إنّ العالم الغربيّ وراء الهجمات الإرهابيّة. تشير النّتائج إلى أنّ عنصري الصّراع بين الجماعات مهمّان بالنّسبة إلى نظريّات المؤامرة: فقد توقّع التّطابق مع المسلمين الإيمان بنظريّات المؤامرة هذه، ولكن فقط بين المشاركين الّذين شعروا بالتّهديد من الغرب.

لئن كانت هذه النّتائج واعدةً، فإنّها فضلًا عن ذلك محدودة بحقيقة أنّها مرتبطة بعضها ببعض. لا تظهر العلاقات أيّ سببيّة: ربّما تسبّب الإيمان بنظريّة مؤامرة غربيّة في الشّعور بأنّ الغرب يهدّد المسلمين. تتمثّل إحدى طرق اختبار السّببيّة في تجربة يواجه فيها المشاركون معلومات تصوّر الغرب على أنّه إمّا تهديد أو لا يشكّل تهديدًا. لذلك أجرى هؤلاء المؤلّفون مثل هذه التجربة مرّة أخرى في بيئة إندونيسيّة. قرأ نصف المشاركين مقالًا في إحدى الصحف يصف كيف أنّ التّهديد الّذي تشكّله الدّول الغربيّة على العالم الإسلاميّ يتزايد في العقود الماضية (تهديد كبير للمجموعة الخارجيّة)؛ قرأ النصف الآخر مقالًا في إحدى الصّحف يصف كيف كان هذا التّهديد يتناقص في العقود الماضية (تهديد منخفض للمجموعة الخارجيّة). إلى جانب إحداث شعور بالتّهديد خارج الجماعة، بالإضافة إلى ما تقدّم، ذكّر هؤلاء المؤلّفون نصف المشاركين بهويّتهم الإسلاميّة. وطلب منهم كتابة مقال موجَز يصف طبيعة هويّتهم باعتبارهم مسلمين، وأهمّيّتها؛ كتب النّصف الآخر من المشاركين مقالًا أكثر حياديّة حول أنشطتهم اليوميّة. وأشارت النّتائج إلى أنّ المشاركين أيّدوا نظريّات مؤامرة أقوى، حول التّورّط الغربيّ في الإرهاب الإندونيسيّ على أعلى مستوى، في مقابل حالة تهديد الجماعات الخارجيّة المنخفضة. حدث هذا التّأثير فقط بين المشاركين الّذين كتبوا مقالًا عن هويّتهم الإسلاميّة. وبعبارة أخرى، فقد وُصِف الغرب بأنّه يهدّد الإيمان بنظريّات المؤامرة، ولكن فقط بين المواطنين الإندونيسيّين الذين ذُكِّروا بهويّتهم الإسلامية. تؤكّد هذه النتائج بشكل أكبر الجذورَ الاجتماعيّة لنظريات المؤامرة: الجمع بين الهويّة القويّة مع مجتمع الفرد وإدراك المجموعات المختلفة على أنّها تهديد يجعل النّاس عرضة لنظريّات

المؤامرة.

الأقلّيات

«الفيروس الّذي يسبّب الإيدز أُنشئ في المختبر من أجل القضاء على المجتمع الإفريقيّ الأمريكيّ». هذه واحدة من بين كثير من نظريات المؤامرة الشّائعة بين الأمريكيّين من أصلٍ أفريقيّ، وهي تتضمّن عادةً مؤامرة من قبل الأغلبيّة البيضاء لإيذاء المواطنين السّود أو قتلهم. وهناك مثال آخر يتمثّل في نظريّة المؤامرة القائلة إنّ الأغلبيّة البيضاء تستخدم بشكل استراتيجيّ وسائل تحديد النّسل للحدّ من السّكّان السّود. قد تبدو هذه النّظرية بعيدة الاحتمال، في دراسة أجريت على عيّنة عشوائيّة من 500 أمريكيّ من أصل أفريقيّ، يؤمنُ عدد كبير منهم بنظريّة المؤامرة هذه. على سبيل المثال، وافق 37.4٪ من العيّنة على عبارة «تستخدم المؤسّسات الطّبّيّة والصّحّيّة العامّة الفقراء والأقليّات كخنازير تجارب لتجربة طرق جديدة لتحديد النسل». وبالمثل، وافق 24.8٪ على أنّ «النساء الفقيرات والأقلّيّات يجبرن في بعض الأحيان على استعمال موانع الحمل، من قبل الحكومة». لم تكن معتقدات المؤامرة هذه غير ضارّة: لقد توقّعوا مواقف سلبيّة تجاه وسائل منع الحمل. حتّى إنّ بعض معتقدات مؤامرة تحديد النّسل - وتحديدًا نظريّات المؤامرة حول سلامة وسائل منع الحمل - توقّعت انخفاض استخدام وسائل منع الحمل بين الرّجال. ومن ثمّ فإنّ نظريّات المؤامرة هذه تزيد من مخاطر الحمل غير المرغوب فيه والأمراض المنقولة جنسيًّا.

في ضوء الافتراض الرّئيسيّ أنّ لنظريات المؤامرة جذورًا اجتماعيّة، تقدّم مجموعات الأقلّيّات المجتمعيّة حالة مثيرة للاهتمام. إحدى الأفكار الشّائعة في علم النّفس هي أنّ الأقلّيّات غالبًا مّا تكوّن مجموعات فرعيّة متماسكة في المجتمع. بعبارة أخرى، يميل الأعضاء إلى ربط هويّتهم بقوّة بمجموعة من الأقلّيّات الخاصّة بهم: يتفاعل الأعضاء بقوّة عندما يرون كيف يقع عضو آخر من مجموعة

الأقليّة نفسها ضحيّة - فكّر على سبيل المثال في احتجاجات واسعة النّطاق في أعقاب حوادث مأسويّة مختلفة إذا قتل ضابطُ شرطة أبيض، بالرّصاص، مشتبهًا به أسود لم يكن مسلّحًا عند القبض عليه. الفكرة الثّانية هي أنّ أعضاء مجموعة الأقلّية غالبًا ما يكون لديهم سبب وجيه للشّعور بالتّهديد من قبل مجموعة الأغلبيّة. كثيرًا ما يواجه أعضاء مجموعات الأقلّيّات مثل الأمريكيّين من أصل أفريقيّ مشاكل حقيقيّة مثل عدم تكافؤ الفرص والتّحيّز والتّمييز والفقر وما شابه ذلك. هنا نرى مرّة أخرى مزيجًا من الرّوابط الاجتماعيّة القويّة مع مجموعة معيّنةٍ، جنبًا إلى جنب مع مجموعة خارجيّة قويّة تعتبر تهديدًا. ماذا يعني هذا بالنّسبة إلى احتمال وجود نظريّات المؤامرة بين أعضاء مجموعة الأقلّيّات؟

قارنت إحدى الدّراسات معتقدات طلّاب الجامعات الأمريكيّة من السّود بما يعتقده البيض في إجماليّ 13 نظريّة مؤامرة تصف كيف تعمد الحكومة الأمريكيّة الإضرار بالأمريكيّين الأفارقة بشكل انتقائيّ. 10 من الأمثلة على ذلك نظريّات المؤامرة التي تقول إنّ الحكومة على دراية مسبقة بتوفّر المخدّرات في أحياء السّود، وإنّها تتسبّب عمدًا في ارتفاع معدّلات التّشرّد بينهم؛ وتتعمّد الحكم بالإعدام عليهم، أكثر من البيض. لقد كشفت هذه الدّراسة أنّ المشاركين السّود يؤمنون بأغلبيّة ساحقة بكلّ هذه النّظريّات بقوّة أكبر من المشاركين البيض. ولا شكّ أنّ الاعتقاد في نظريّات المؤامرة هذه كان إلى حدّ مّا بسبب المشاكل الحقيقيّة الّتي يواجهها المجتمع الأفريقيّ الأمريكيّ. على وجه التّحديد، كلّما عزا المشاركون بقوّةٍ مشاكلَهم الفعليّة إلى الانحياز والتّمييز، زاد احتمال تصديقهم لنظريّات المؤامرة هذه. مرّة أخرى، يرجى ملاحظة أنّ الكثير من هذه الصّفات قد يكون له ما يبرّره: الانحياز والتّمييز ضدّ الأقليّات أمرٌ شائع ويساهم في مشاكل حقيقيّة مثل البطالة والفقر والجريمة. ولكن عند فهم ظروف الحياة السّلبيّة هذه، يمكن أن تلهم المشاكل الواقعيّة بسهولة تفسيرات تتضمّن نظريّات مؤامرة غير واقعيّة.

تؤكّد هذه النّتائج كيف أنّ العلاقات الصّعبة بين المجموعات الفرعيّة في أيّ

مجتمع قد توفّر أحيانًا أرضًا خصبة لنشوءِ نظريّات المؤامرة. من المرجّح أن تؤدّي التّوتّرات العرقيّة، أو الصّراع بين المجموعات العرقيّة أو الدّينية الفرعيّة، إلى ظهور نظريّات مؤامرة من خلال سمات الصّراع بين المجموعات - لاسيّما تجربة ارتباط قويّ لهويّة الفرد بمجموعة معيّنة، واعتبار المجموعة المقابلة تهديدا لوجودها. في حين أنّ جميع المجموعات المتورّطة في مثل هذا الصّراع قد تؤيّد نظريّات المؤامرة حول المجموعات الأخرى إلى حدّ معيّن، تشير الأبحاث حول مجموعات الأقلّيات، على وجه الخصوص، إلى أنّ المجموعات الّتي تكابد وضعا ضعيفا متردّيا وتعاني مشاكل حقيقيّة تكون الأكثر عرضة لتأييد نظريّات المؤامرة. وفي النّهاية، فإنّ لدى هذه المجموعات أسبابًا أكثر نسبيًّا من غيرها لتجربة شعور بالتّهديد خارج الجماعة، ممّا يغذّي الميل إلى رَدِّ أفعال المجموعات الأخرى إلى مؤامرات معادية.



خلاصة

تكتسي نظريّات المؤامرة بُعدًا اجتماعيًّا واضحًا. فالمؤامرة بحكم تعريفها هي جماعة خارجيّة معادية، ومعظم نظريّات المؤامرة تحدّد كيف تؤذي المؤامرة المشتبه بها أو تخدع مجموعة أكبر من النّاس. لقد رأينا في هذا الفصل أنّ جانبين من جوانب الصّراع بين الجماعات يعدّان تنبّؤا جيّدًا لنظريّات المؤامرة. كلّما شعر النّاس بالتّقريب تجاه ضحايا حدث مشتبه فيه أو تهديد، ازداد احتمال تفسيرهم لهذا الحدث من خلال نظريّات المؤامرة. علاوة على ذلك، كلّما زاد شعور النّاس بالخوف أو التّهديد من قبل الجماعات الأخرى، ازداد احتمال اتّهام النّاس لهذه المجموعات المختلفة بالتّآمر. نظريّات المؤامرة هي نتيجة لميل النّاس الطّبيعيّ إلى تصنيف العالم إلى «نحن» مقابل «هم»، وفي محاولة لحماية مجموعاتهم الاجتماعيّة من التّهديدات الخارجيّة، تلقي نظريات المؤامرة باللّوم على الإجراءات السّرّيّة

للجماعات الخارجيّة غير المتشابهة.

نظريّات المؤامرة والإيديولوجيا

كان العام 2016 عام الشّعبويّة. وقد تجسّدت أكثر ما تجسّدت في دعوة الحزب الشّعبويّ اليمينيّ إلى استقلال المملكة المتّحدة، - UKIP، ومن ثَمّ تصويتها على مغادرة الاتّحاد الأوروبّيّ (Brexit)، من جهة، وفي انتخاب الولايات المتّحدة دونالد ترامب، من جهة أخرى، ليكونَ رئيسها الخامس والأربعين. اتّسمت هاتان الحركتان الشعبويّتان بمجموعة من نظريّات المؤامرة. لاحظ الباحثون في المملكة المتّحدة أنّ معسكر «المغادرة» بشكل خاصّ أيّد نظريّات المؤامرة خلال الحملة. في استطلاع أُجري قبل أيّام قليلة من استفتاء المملكة المتّحدة، توقّع 64٪ من ناخبي حزب استقلال المملكة المتّحدة-UKIP تزوير نتائج الاستفتاء. ويعتقد أكثر من ثلث المصوّتين لقرار «المغادرة» أنّ المكتب الخامس-MI5، وكالة التّجسّس البريطانيّة المضادّة، تآمرت مع حكومة المملكة المتّحدة لمنع خروج بريطانيا من الاتّحاد الأوروبّيّ."[47] وبالمثل، نشر دونالد ترامب نظريّة المؤامرة واحدةً تلو أخرى خلال حملته الانتخابيّة. وأعلن أنّ الانتخابات ستكون مزوّرة. وقد استمرّ حتّى بُعَيد فوزه بالهيئة الانتخابيّة في ادّعاء أنّ الدّيمقراطيّين فازوا بالتّصويت الشّعبيّ فقط من خلال لعب شرّير. وأشار في معرض ادّعاءاته إلى أنّ تغيّر المناخ هو «خدعة ارتكبها الصّينيّون»، مؤكّدا على صعيد آخر، أنّ أوباما لم يولد في الولايات

.(47) Sullivan, D., Landau, M. J., & Rothschild, Z. K. (2010). An existential function of enemyship: Evidence that people attribute influence to personal and political enemies to compensate for threats to control. Journal of Personality and Social Psychology, 98 , 434–449.

المتّحدة، ولم يكن ينبغي بناءً على ذلك أن يكون رئيسا، واغتنم كلّ فرصة لتوريط هيلاري كلينتون باعتبارها جزءًا من مؤامرة، معتبرًا على سبيل المثال أنّ «مؤسّسة كلينتون هي المؤسّسة الأكثر فسادًا في التاريخ السياسيّ»، ومن ادّعاءاته أيضًا أنّ اللّقاحات تسبّب التّوحّد، وما إلى ذلك. من المعقول تمامًا أنّ هذه الحركات الشّعبويّة حقّقت نجاحًا انتخابيًّا، يعود فيه الفضل بنسبة كبيرة إلى نظريّات المؤامرة.

في أعقاب خروج بريطانيا من الاتّحاد الأوروبيّ ونجاح ترامب في سباق الرّئاسة الأمريكيّة، لم أجد صعوبة كبيرة في إقناع زملائي الأكاديميّين بأنّ نظريّات المؤامرة سائدة في اليمين السّياسيّ. لكن في الواقع، فإنّ نظريّات المؤامرة سائدة في اليسار السياسيّ أيضًا. لقد أيّد الدّيمقراطيّون عددًا من نظريّات المؤامرة (على سبيل المثال، ادّعاءات أنّ ترامب تواطأ مع بوتين وويكيليكس للتأثير في الانتخابات). في الدّراسات الّتي أجريت في الاتّحاد الأوروبّيّ، كثيرًا ما أجد أنّ اليسار السّياسيّ أيضًا تآمريّ، على الرّغم من أنّه غالبًا ما يتعلّق بمواضيع مختلفة عن اليمين السّياسيّ. تتعلّق أمثلة نظريّات المؤامرة اليساريّة في الاتّحاد الأوروبّيّ بالحروب (على سبيل المثال، العراق)، والشّركات الكبرى، والحكومة الأمريكيّة، وما إلى ذلك. وإنّ أمثلة نظريّات المؤامرة اليمينيّة في الاتّحاد الأوروبّيّ تتعلّق بالعلوم (على سبيل المثال، تغيّر المناخ) والهجرة والإرهاب وغيرها من الموضوعات الّتي يشكّ فيها اليمين السّياسيّ عادةً. يشترك اليسار واليمين أيضًا في إيمانهما بنظريّات تآمريّة حول مجموعة من الموضوعات، مثل السّياسيّين بشكل عامّ ودور الاتّحاد الأوروبّيّ في السّياسة المحلّيّة.

هذا لا يعني أنّه لا توجد فروق نفسيّة بين الأشخاص ذوي الإيديولوجيّات السّياسيّة اليساريّة مقابل اليمين. لقد حدّدت الكثير من دراسات علم النّفس السّياسيّ عددًا من الاختلافات النفسيّة الجديرة بالملاحظة بين اليسار واليمين، وأصبحت اليوم راسخة في المجتمع العلميّ. فاليمين السياسيّ على سبيل المثال

يميل إلى أن يكون أكثر استبدادًا من اليسار السّياسيّ، ممّا يعني أنّ لدى اليمينيّين رغبة أقوى في النّظام كما ينعكس في الميل إلى المطالبة باتّباع القاعدة والنّفور من الغرباء المعياريّين. يسجّل اليمين السّياسيّ أيضًا درجات أعلى في متغيّر يسمّى «توجّه الهيمنة الاجتماعيّة»، ويشير إلى الرّغبة في قبول عدم المساواة بين المجموعات[48]. ولكن إلى جانب التّمييز بين اليسار واليمين، يوجَد فرق آخر ذو مغزى في علم النّفس السّياسيّ هو بين المتطرّفين السّياسيّين والمعتدلين: من نواح كثيرة، يشبه اليسار المتطرّف واليمين المتطرّف بعضهما البعض بشكل وثيق، بعيدا عمّا نجده لدى الأشخاص المعتدلين سياسيًّا.

على سبيل المثال، يميل المتطرّفون السّياسيّون - في كلّ من اليسار واليمين - إلى أن يكونوا واثقين إلى حدّ مّا من معتقداتهم السّياسيّة، ومع ذلك فهم يتشاركون أيضًا في نظرة متشائمة بشأن مستقبل غير مؤكّد. في إحدى الدّراسات، أفاد المتطرّفون السّياسيّون بأنّهم يشعرون بعدم اليقين في خصوص مستقبلهم الاقتصاديّ أكثر من المعتدلين، وعلى سبيل المثال، كانوا قلقين من أن يكون هناك القليل من المعاشات التّقاعديّة لهم عندما يكبرون، أو أنّ العالم الغربيّ سينتكس في المستقبل القريب إلى مستوى أقلّ بكثير من الازدهار. وفضلا عمّا تقدّم يميل المتطرّفون السّياسيون، مقارنة بالمعتدلين، إلى أن يكونوا أقلّ تسامحًا مع الجماعات الّتي يرون أنّها مختلفة - ممّا يعني أنّ اليسار المتطرّف ينتقص من مجموعات مثل المصرفيّين، وأصحاب الملايين، والجنود، واليمين المتطرّف ينتقص من مجموعات مثل المسلمين والمثليّين والمثليّات والعلماء. تشير دراسة إضافيّة إلى أنّه بالإضافة إلى كونها أقلّ تسامحًا مع المجموعات المختلفة، فإنّ التّطرّف السّياسيّ على جانبي الطّيف يكون أيضًا أقلّ تسامحًا مع الأشخاص الذين لديهم آراء مختلفة عنهم، ومن المرجّح أن يتّفقوا مع عبارات مثل، «الأشخاص الّذين يفكّرون بشكل مختلف عن

(48). Sunstein, C. R., &Vermeule, A. (2009). Conspiracy theories: Causes and cures. The Journal of Political Philosophy, 17 , 202–227.

"أنا" في ما يتعلّق بالقضايا السياسيّة أقلّ قيمةً منّي» أو «إنّه لَأمرٌ مخيفٌ إذا كان النّاس يفكّرون بشكل مختلف عمّا أفكّر به في القضايا السّياسيّة»[49].

في الدّيمقراطيّات الحديثة، عادة ما تتجسّد التّطرّفات السّياسيّة في الحركات الشّعبويّة بالبرلمان. بهذا المعنى، أجد أنّه من اللّافت للنّظر أن يميل علماء النّفس السّياسيّون الرّاسخون إلى ذكر كلمة «الشّعبويّة» في الوقت نفسه مثل «الجناح اليمينيّ» - بافتراض أنّ الأيديولوجيّات اليمينيّة هي السّمة المميّزة للشّعبوية. في الواقع، ليست الشّعبويّة أيديولوجيا بل طريقة تفكير تفسّر السّياسة على أنّها صراع بين «الشّعب» و«النّخب»[50]. على هذا النّحو، يمكن أن تحدث الشّعبويّة عبر الطّيف السّياسيّ، على الرغم من أنّها أكثر شيوعًا بين اليمين واليسار المتطرّفين. تفترض الأحزاب الشّعبويّة أساسًا أنّها تتحدّث نيابة عن الشّعب. والأبعاد الأساسيّة الّتي تتبع مثل هذه المركزيّة بين النّاس هي معاداة النّخبويّة (أي أنّ الأحزاب الشّعبويّة عادة ما تنفر من النّخب السّياسيّة، وتكون أحيانًا أيضًا ضدّ النّخب المجتمعيّة مثل العلماء أو الرّؤساء التّنفيذيّين أو المصرفيّين)، ومناهضة التعدّديّة (أي الشّعبويّة. تفترض الأحزاب أنّها فقط تمثّل الصّوت الحقيقيّ للشّعب، وهكذا فهي أقلّ قبولًا للآراء المعارضة من الأحزاب المعتدلة)، وتهدّد القوميّة (أي أنّ الأحزاب الشّعبويّة تنشر الفخر في بلدها، جنبًا إلى جنب مع فكرة أنّ البلاد تسير إلى الاتّجاه الخاطئ).

في الولايات المتّحدة، يمكن القول إنّ هذه الشّعبويّة أكثر وضوحًا في اليمين السياسيّ (حركة الشّاي؛ ترامب)، على الرّغم من أنّها موجودة أيضًا في اليسار

(49).Swami, V., Coles, R., Stieger, S., Pietschnig, J., Furnham, A., Rehim, S., &Voracek, M. (2011). Conspiracist ideation in Britain and Austria: Evidence of a monological belief system and associations between individual psychological differences and real-world and fi ctitious conspiracy theories. British Journal of Psychology, 102 , 443–463.
(50).Swami, V., Voracek, M., Stieger, S., Tran, U. S., & Furnham, A. (2014). Analytic thinking reduces belief in conspiracy theories. Cognition, 133 , 572–585.

السّياسيّ (على سبيل المثال، حركة «احتلّوا وول ستريت»). وبالمثل، يبدو أنّ الشّعبويّة أكثر شيوعًا في اليمين السّياسيّ بأوروبّا الغربيّة، على الرّغم من أنّ الاتّحاد الأوروبيّ لديه أيضًا عدد من الحركات الشّعبويّة اليساريّة. ومن الأمثلة على الأحزاب الشّعبويّة اليمينيّة في الاتّحاد الأوروبيّ نجد حزب استقلال المملكة المتّحدة (المملكة المتّحدة)، الجبهة الوطنيّة (فرنسا)، حزب من أجل الحرّية (هولندا)، والبديل من أجل ألمانيا (ألمانيا). ومن الأمثلة على الأحزاب الشّعبوية اليساريّة في الاتّحاد الأوروبي، بوديموس(إسبانيا)، وسيريزا (اليونان)، ودي لينك (ألمانيا)، والحزب الاشتراكيّ (هولندا). لكنّ الشّعبويّة في أجزاء كبيرة من أمريكا اللّاتينيّة أكثر شيوعًا في اليسار السّياسيّ، وخير مثال على ذلك هوغو شافيز - بعد وفاته وتبعه نيكولاس مادورو - في فنزويلا. ومن الأمثلة الأخرى على البلدان ذات الحركات الشّعبويّة اليساريّة القويّة الإكوادور وبوليفيا والبرازيل.

مازال الاختلاف بين الدّول قائمًا، حول ما إذا كانت الشّعبويّة والتّطرّف يمثّلان كِلاهما ظاهرةً يمينيّة أم يساريّة. ومن وجهة نظر عقليّة فإنّنا نحسبهما نتيجة لعوامل شتّى، تتداخل في تكوينها الخصوصيّات الثّقافيّة، والبنى الاجتماعيّة، والظّرف الاقتصاديّ، وتؤدّي مجتمعة إلى خلق ضربٍ من القلق لدى عموم المواطنين في مناطق مختلفة من العالم، جرّاء ما يعتبرونه من موقعهم تهديدا يتربّص بهم. وقد لوحظ في هذا الصّدد أنّ الحركات الشّعبويّة اليمينيّة أكثر نجاحًا في بلدان أوروبّا الشّمالية لأنّ هذه البلدان، بسبب ثروتها، جذّابة للمهاجرين. وعلى نحو متّصل، كانت الحركات الشّعبويّة اليساريّة ناجحة نسبيًّا في دول جنوب أوروبّا، وهو ما قد يرجع إلى حقيقة أنّ هذه البلدان تواجه مشاكل اقتصاديّة أكبر وتعاني من تدابير التقشّف أكثر من الدّول الأعضاء الأخرى في الاتّحاد الأوروبيّ.

وجهة نظري في هذا الفصل هي أنّ نظريّات المؤامرة أكثر ترجيحًا بين الأشخاص الّذين يؤيّدون المعتقدات المتطرّفة أو الشّعبوية، ويمكن أن يحدث مثل هذا التطرّف في كلّ من اليسار أو اليمين. توفّر السّمات النّفسيّة الأساسيّة

للمعتقدات المتطرّفة أرضًا خصبة بشكل استثنائيّ لنشوء نظريّات المؤامرة. على سبيل المثال، إذا كان لدى المرء نفور من النّخب المجتمعيّة، فإنّ افتراض أنّ تلك النّخب متورّطة في مؤامرات معادية يعدّ خطوة صغيرة. علاوة على ذلك، تميل الأيديولوجيّات المتطرّفة إلى أن تكون قوميّة، وقد رأينا في الفصل الرّابع كيف تؤدّي المشاعر القوميّة إلى تفاقم نظريّات المؤامرة. أخيرًا، المتطرّفون غير متأكّدين بشأن مستقبلهم الاقتصاديّ أكثر من المعتدلين. لذلك، ليس من قبيل المصادفة أنّ القادة المتطرّفين والشّعبويّين غالبًا ما يتمتّعون بجاذبيّة قويّة لأجزاء من السّكّان بحكم وضوحهم. يستخدم السّياسيّون الشّعبويّون الخطابات الفرديّة الجذّابة، وبالنتيجة يتمّ الثّناء عليهم «لقولهم كما هو». لكنّهم في الحقيقة يقترحون حلولًا مبسّطة للمشاكل المعقّدة نسبيًّا التي يواجهها بلدٌ مّا. قد ينشأ تأييد القادة الشعبويّين من الرّغبة في الوضوح - ويتمّ توفير هذا الوضوح أيضًا من خلال نظريّات المؤامرة. ففي النّهاية، تقدّم نظريّات المؤامرة تفسيرات شاملة للأحداث المعقّدة، وقد رأينا في الفصول السّابقة كيف تزدهر نظريّات المؤامرة بشكل خاصّ في المواقف غير المؤكّدة.

في ما يلي، ندرس أوّلًا مدى انتشار نظريّات المؤامرة في الأنظمة المتطرّفة غير الديمقراطيّة والقمعيّة، سواء في أقصى اليسار (الشيوعيّة) أو في أقصى اليمين (الفاشيّة). ونستعرض بعد ذلك الدّراسات الّتي بحثت في الصّلة بين الأيديولوجيّة السّياسيّة ونظريّات المؤامرة بين المواطنين الّذين يعيشون في الدّيمقراطيّات الحديثة. اختبرت هذه الدّراسات الأخيرة على وجه التّحديد ما إذا كان المواطنون الأيديولوجيّون على أطراف الطّيف السّياسيّ - ناخبو الأحزاب الاشتراكيّة الرّاديكاليّة مثل اليسار الشّعبويّ والنّاخبون المناهضون للهجرة مثل اليمين الشّعبويّ - أكثر عرضة لنظريّات المؤامرة. وسنناقش في مرحلة أخيرة نظريّات المؤامرة بين أعضاء الجماعات المتطرّفة في المجتمع - بعضها عنيف - مع التّركيز بشكل خاصّ على الأصوليّة الدّينيّة أو التّطرّف السّياسيّ أو غيرهما من

الجماعات المتطرّفة أيديولوجيًا.

نظريّات المؤامرة في الأنظمة المتطرّفة

تَرْزَحُ كوبا تحت سطوة حكمٍ شيوعيٍّ صارمٍ وتنتمي إلى أكثر الأنظمة قمعيّةً في العالم. في العام 2009 أتيحت لي فرصة السّفر إلى هذا البلد لبضعة أسابيع. كان السّفر إلى كوبا من أكثر التّجارب الغنيّة والمثيرة للاهتمام في حياتي، وقد أدهشتني المناظر الجميلة، ولكن أدهشني أيضًا الفقرُ المتفشّي هناك. في البداية، يبدو الجمهور مبتهجًا، مع الكثير من الغناء والموسيقى والرّقص؛ ولكن على السّطح مباشرة، يمكن للمرء أن يشعر بالسّيطرة المفرطة الّتي يمارسها النّظام على حياة البشر. على سبيل المثال، وجدت أنّ المواطنين الكوبيّين متردّدون جدًّا في الحديث عن الوضع السّياسيّ ببلادهم، ممّا يعكس وعيًا بالعواقب المحتملة للتّعبير عن رأيهم في النّظام. في هافانا، زرت متحف الثّورة الشّهير، وهناك رأيت البيان التّالي مقدّمًا على أنّه حقيقة تاريخيّة:

أدخلت وكالة المخابرات المركزيّة عدوًّا جرثوميًّا إلى بلدنا وهوَ فيروس حمّى الضنك أو حمّى تكسير العظام. من أصل 344203 حالة معروفة، نُقِلت 116115 حالة إلى المستشفى؛ توفّي 57 بالغًا و101 من الأطفال.

حمّى الضنك هي عدوى رهيبة بالفعل، لكنّها شائعة في البلدان ذات المناخ الاستوائيّ، وفي جميع البلدان الأخرى داخل منطقة البحر الكاريبي، وكذلك في أجزاء كبيرة من أمريكا الوسطى والجنوبيّة وأفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا. تحدث حمّى الضنك حاليًّا في أكثر من 110 دولة حول العالم. لن تكون هناك حاجة إلى وكالة المخابرات المركزيّة لإدخاله إلى كوبا، لأنّ مناخ كوبا كان سيجذب البعوض الّذي يحمل الفيروس على أيّة حال. لكن في العام 1981، اتّهم فيدل كاسترو الولايات المتّحدة علنًا بإدخال هذا المرض إلى كوبا، وكما يشير بيان

المتحف، في العام 2009، لا تزال السلطات الكويتيّة تلقي باللّوم في خصوص حدوث هذا المرض ببلدها على مؤامرة يقودها عدوّها اللّدود (إنّه كذلك) لكن من غير الواضح بالنّسبة إليّ لماذا وصف المتحف العدوان المفترض بأنّه «جرثوميّ» بالنّظر إلى أنّ حمّى الضنك، كما أقرّ البيان نفسه، مجرّد فيروس.

هل هي مصادفة أن يُروَّج لنظريّة المؤامرة هذه بشكلٍ رسميّ داخل بلدٍ يحكمه نظام متطرّف؟ اسمحوا لي أن أبدأ بالقول إنّه من الصّعب إجراء بحث اجتماعيّ نفسيّ في البلدان الّتي تحكمها أنظمة قمعيّة متطرّفة - حتّى لو أتيحت للباحثين فرصة مقابلة المواطنين، فمن المشكوك فيه إلى حدّ كبير ما إذا كانت هذه المقابلات ستنتج ردودًا موثوقة تعكس حقيقة المواطنين. لكنّنا نعرف الكثير عن الأنظمة المتطرّفة ودور نظريّات المؤامرة فيها من خلال المصادر التّاريخيّة. إحدى الأفكار الرّئيسيّة الّتي تظهر من هذه المصادر هي أنّ نظريّات المؤامرة شائعة جدًّا - على الأقلّ بين القوى الحاكمة - في كلٍّ من الأنظمة الشيوعيّة (اليسار المتطرّف) والفاشيّة (اليمين المتطرّف). عادةً ما ينشر قادة مثل هذه الأنظمة نظريّات المؤامرة حول الجماعات المعادية أو الأيديولوجيّات المعارضة لكسب التّأييد لقضيّتهم. مثل هذه الأنظمة تخشى المؤامرات، وينعكس ذلك في المراقبة المستمرّة للمواطنين ومقاضاة النّاس لعلاقاتهم الواضحة مع دول أو أيديولوجيّات تُعتَبر عدوّا[51].

في الفترة الممتدّة بين الثلاثينيّات وأوائل الأربعينيّات من القرن الماضي، ألقى أدولف هتلر خطبًا عديدة عبّر فيها عن كراهيته للشّعب اليهوديّ. وفي كتابه كفاحي-Mein Kampf أيضًا، أخذ الوقت الكافي لإلقاء الضّوء بشكل متقن على أسباب معاداته للسّاميّة. لماذا كره هتلر اليهود كثيرًا؟ إذا نظر المرء عن كثب إلى حجّته، يبدو أنّ جزءًا من الإجابة هو أنّ هتلر كان مؤمنًا مقتنعًا بنظريّات المؤامرة اليهوديّة. وقد ردّ الأسباب الثّاوية وراء هزيمة ألمانيا في الحرب العالميّة الأولى، وما

.(51)Synovate (2009). GelovenNederlanders in Complottheorieen? Research report Synovate, 13 May 2009.

أعقبها من تدهور اقتصاديّ سريع إلى مؤامرة يهوديّة. ثمّ إنّه يعتقد أنّ كلّا من الشّيوعيّة والرّأسماليّة هما نتيجة مؤامرات يهوديّة للسّيطرة على العالم. يحتاج الأمر إلى القليل من الدلائل التي تثبتُ أنّ نظريّات المؤامرة الهتليريّة كانت لها عواقب وخيمة ومأسويّة، فقد أعطت السّكان الألمان كبش فداء مناسب لمشاكلهم، ممّا سهّل وصول هتلر إلى السّلطة. وكانت نظريّة المؤامرة الّتي تربط اليهود بالشيوعيّة -الّتي يشار إليها باسم «اليهوديّة البلشفيّة» - حجّةً مركزيّة ليس فقط لبدء الهولوكوست ولكن أيضًا لغزو الاتّحاد السّوفييتيّ الّذي يحكمهُ ستالين. طبعًا، لم تكن هناك مؤامرة يهوديّة وراء الشّيوعيّة. فجوزيف ستالين نفسه كان يؤمن بنظريّات المؤامرة اليهوديّة ومن ذلك أنّه ردّ صعود النّازيّة نفسها إلى مؤامرة يهوديّة.

بمجرّد وصولها إلى السّلطة، عادة ما تقمع الأنظمة المتطرّفة المعارضةَ، وتحظر حرّيّة الصّحافة. وأحد الأسباب الرّئيسيّة لتقييد حرّيّة التّعبير بين المواطنين هو الخوف من المؤامرات. فغالبًا ما يُنظر إلى المواطنين المعارضين على أنّهم يقوّضون الدّولة ويُتّهمون بالقيام بأنشطة تآمريّة لإلحاق الضّرر بالنّظام أو قلبه. ومن المعروف أنّ جوزيف ستالين أمر بإعدام آلاف الأشخاص خوفًا من أنّهم قد يشكّلون مؤامرات ضدّه وضدّ إدارته. وبالمثل، في ألمانيا الشّرقيّة السّابقة، تجسّست الاستخبارات السّوفيتية-KGB على آلاف المواطنين. خلال هذه الأنشطة، كان جهاز المخابرات السّوفياتيّة (KGB) مهتمًّا بشكل خاصّ بمدى تبنّي المواطنين آراءهم الخاصّة تجاهَ النّظام، وهو ما كان يعتبر مؤشّرًا على أنّ المواطنين كانوا أعداء الدّولة الّذين يتآمرون على النّظام. وقد أولت الاستخبارات السّوفيتيّة فضلا عمّا تقدّم اهتمامًا خاصًّا باحتمال تواطؤ المواطنين مع «الغرب الإمبرياليّ». حتّى الاتّصالات البعيدة مع الغرب، أو مع المنشقّين السّياسيّين المتعاطفين مع الغرب، يمكن أن تضع المواطنين في مشاكل خطيرة. المفتاح هنا هو الخوف من المؤامرات بين المواطنين الّتي من شأنها أن تضعف بطريقةٍ مّا سلطة النّظام.

ومن ثمّ فإنّ نظريّات المؤامرة كانت ولا تزال سائدة بين الأنظمة القمعيّة المتطرّفة الّتي شهدها عالمنا. على الرّغم من صعوبة تحديد مدى تأييد المواطنين العاديّين الّذين يعيشون في مثل هذه الأنظمة لنظريّات المؤامرة، فإنّ الأحزاب المتطرّفة الحاكمة عادة ما تعبّر عن نظريّات مؤامرة قويّة. إنّهم ينشرون نظريّات المؤامرة حول الدّول أو الأيديولوجيّات أو الجماعات المجتمعيّة الّتي يعتبرونها معادية. وإنّ الأنظمة المتطرّفة كما هو معلوم تشكّ باستمرار في مواطنيها وتقاضي بسهولة المعارضين السّياسيّين أو المنشقّين أو المواطنين العاديّين بتهمة تقويض أنشطة تآمريّة للدّولة.

نظريّات المؤامرة والشّعبويّة

لئن كانَ من الصّعب مطالبة مواطني الأنظمة القمعيّة بتقديم استبيانات حولَ مدى إيمانهم بنظريّات المؤامرة، فإنّ هذا البحث يُعدّ سهلًا نسبيًّا في الدّيمقراطيات الحديثة التي يتمتّع فيها المواطنون بحرّيّة انتقاد من يحلو لهم. وهكذا، فإنّ السّؤال المثير للاهتمام هو ما إذا كان من المرجّح أن يؤمن عموم النّاس في الدّيمقراطيّات الحديثة بنظريّات المؤامرة أكثر من المعتدلين السّياسيّين. ووجب قبل الخوض في هذه المقارنة أن نميّز الرّاديكاليّين، في الاتّحاد الأوروبّيّ وفي الولايات المتّحدة الأمريكيّة، من أمثالهم في الأنظمة القمعيّة المدروسة سابقًا. ويزعجني في الواقع بعض الأشخاص الّذين يصوّرون الأحزاب المناهضة للهجرة في الاتّحاد الأوروبّي على أنّها «نازيّة» أو الأحزاب الاشتراكيّة في الاتّحاد الأوروبّيّ على أنّها «شيوعيّة» - مثل هذه التوصيفات هي تبسيط مفرط يتجاهل الاختلافات التاريخيّة المهمّة ويفشل في إدراك مدى قدرة هذه الأنظمة الديكتاتوريّة على الانزلاق من منحدر أخلاقيّ زَلِقٍ. عادة ما تكون الأحزاب المناهضة للهجرة في راهننا حمائيّة (أي أنّهم يريدون حماية الحدود الحاليّة لبلدهم بشكل أفضل) بينما كان برنامج النّازيّين

توسّعيًّا (أرادوا توسيع حدود ألمانيا)، ممّا أدّى إلى اختلافات واضحة في حتميّة الحرب. وبالمثل، فإنّ الأحزاب الاشتراكيّة الحديثة في الاتّحاد الأوروبيّ تفضّل الدّيمقراطيّة والاستفتاءات، وهذا في تناقض صارخ مع الأنظمة الشيوعيّة القمعيّة. على الرّغم من هذه الاختلافات، فإنّ النّظريّة الموضّحة في هذا الفصل حول كيفيّة ارتباط الأيديولوجيا ونظريّات المؤامرة يجب أن تنطبق أيضًا على الحركات الشعبويّة في البلدان الدّيمقراطيّة. في الفقرات التّالية لا نقارن بين الأنظمة الدّيمقراطيّة والأنظمة غير الديمقراطيّة. نقارن بين النّاخبين الشّعبويّين والمعتدلين داخل الدّيمقراطيّات الحديثة، وبالنّظر إلى خصائص الشّعبوية، أقترح أن نجد فرقًا نسبيًّا بين الشّعبويّين والمعتدلين في عمليّة التّنظير لمسألة المؤامرة.

أُجرِي الاختبار الأوّل للعلاقة بين المعتقدات السّياسيّة المتطرّفة ونظريّات المؤامرة من قبل عالم السّياسة رونالد إنغلهارت، الّذي حلّل البيانات من استطلاع يوروباروميتر-Eurobarometer للعام 1984، وقد أُجري في ستّ دول (ألمانيا، إيطاليا، المملكة المتّحدة، فرنسا، بلجيكا، وهولندا)[52]. لقد نظر على وجه التّحديد في التّنسيب الذّاتيّ للمشاركين على مقياس يتراوح من اليسار السّياسيّ (1) إلى اليمين السّياسيّ (10)، بالإضافة إلى ردود المشاركين على السّؤال عن مدى عدم ثقتهم بمحاكم دولهم. ما وجده كان منحنى "U": كلّما ازداد عدد المشاركين الّذين سجّلوا نقاطًا في التّنسيب الذّاتيّ السّياسيّ (أي باتّجاه الطّرف الأيسر أو الأيمن من المقياس)، ازداد عدم ثقتهم بالمحكمة القانونيّة في بلدهم. كان الأشخاص الّذين وُجدوا في الوسط السّياسيّ أقلّ عرضة لعدم الثقة بالمحكمة القانونيّة في بلدهم. نظر-Inglehart أيضًا إلى المستوى القطريّ ووجد أنّ منحنى U قد تحقّق لـ 5 دول من أصل 6 (باستثناء فرنسا، حيث كان اليمين السّياسيّ أكثر ارتيابًا بالمحاكم من اليسار السّياسيّ - يوضّح رونالد إنغليهارت-

(52). Thorburn, S., & Bogart, L. M. (2005). Conspiracy beliefs about birth control: Barriers to pregnancy prevention among African-Americans of reproductive age. Health Education &Behavior, 32 , 474–487.

Inglehart هذا الشّذوذ من خلال فكرة أنّ الأحزاب اليساريّة المتطرّفة كانت في السّلطة خلال أوائل الثمانينيّات بفرنسا، ممّا دفع اليمينيّين إلى تصوّر المحاكم على أنّها متحيّزة أيديولوجيًّا-ideologically biased).

أُجرِيت سلسلة من الدّراسات المستوحاة من نتائج-Inglehart حول العلاقة بين الإيديولوجيا ونظريّات المؤامرة، جنبًا إلى جنب مع عالم السّياسة أندريه كرooويل وعالم النّفس توماس بوليت. يتمثّل أحد قيود نتائج إنغليهارت في أنّ دراسته لم تُقيِّم نظريّات المؤامرة بشكل مباشر: كان مقياسه التابع هو عدم الثقة بالمحاكم، ويمكن للناس ألّا يثقوا بالمحاكم أيضًا لأسباب غير تآمريّة. على سبيل المثال، قد يعتقد شخص مّا أنّ المحاكم تخلو من كلّ كفاءة، أو قد يعتقد أنّ المحاكم القانونيّة غير مبالية ببساطة بإقامة العدل - المعتقدات الّتي تقلّل ثقة النّاس في نظام العدالة ولكنّها لا تعتبر نظريّات مؤامرة لأنّ هذه المعتقدات لا تنطوي على تحالفات معادية وسرّيّة. كانت اثنتان من الدّراسات الّتي أجريناها عيّنات تمثيليّة على المستوى الوطنيّ لجمهور النّاخبين الهولنديّين. لقد سألنا المشاركين عن اعتقادهم في مجموعة من نظريّات المؤامرة، بعضها محايد سياسيًّا (على سبيل المثال، المعتقدات حول مدى ارتباط السّياسيّين بالجريمة المنظّمة)، وبعضها أكثر قبولًا من اليسار السّياسيّ (على سبيل المثال، المعتقدات حول دور شركات النّفط في شنّ الحرب ضدّ العراق) وبعضها أكثر قبولًا من اليمين السّياسيّ (على سبيل المثال، المعتقدات حول كيفيّة تضخيم العلماء عمدًا لتغير المناخ). كشفت نتائجنا عن شكل حرف U نفسه، مثل إنغليهارت: كان المشاركون الّذين وضعوا أنفسهم إمّا في أقصى اليسار أو أقصى اليمين أكثر عرضة للإيمانِ بنظريّات المؤامرة من المشاركين الذين وضعوا أنفسهم في الوسط السّياسيّ.

لقد أجرينا أيضًا دراسة في الولايات المتّحدة، كشفت فيها النّتائج عن منحنى-U لنظريّات المؤامرة حول الأزمة الماليّة (على سبيل المثال، معتقدات مثل أنّ الحكومة استفادت من الأزمة بطرق لا يعلم بها الجمهور أو أنّ الأزمة كان سببها

مؤامرة من المصرفيّين والسّياسيّين الفاسدين). علاوة على ذلك، فحصنا النظريّات الّتي تشير إلى أنّ المؤامرة تضخّم بشكل متعمّد مخاطر تغيّر المناخ، لكنّ نظريّات المؤامرة هذه تمّ تأييدها في الغالب من قبل اليمين (المتطرّف) - وهو أمر منطقيّ، فاليسار واليمين يختلفان في مدى قلقهما بشأن تغيّر المناخ. كان من الأمور ذات الأهميّة الإضافيّة ما حدث بشأن مقياس للبارانويا الشّخصية: الاعتقاد بأنّ لدى الآخرين نوايا سيّئة تجاه الشّخص المدرك شخصيًّا أو حتّى يتآمرون ضدّه (يقاسُ من خلال تأييد المشاركين لبيانات مثل «أشعر أحيانًا كما لو كنت متابعًا»، أو «لقد حاول بعض النّاس سرقة أفكاري ونسب الفضل إليها»). في مثل هذا الجنون الشّخصيّ، لم يختلف المتطرّف عن المعتدلين. من الواضح أنّ الأشخاص الذين ينتمون إلى أقصى اليسار أو اليمين المتطرّف هم أكثر تآمرًا من المعتدلين السّياسيّين، لكن فقط حول الموضوعات الّتي تهمّ المصلحة الجماعيّة مثل الأزمة الماليّة أو الحرب أو السّياسيّين بشكل عامٍّ. إنّهم ليسوا أكثر من المعتدلين في الاعتقاد بأنّ النّاس يتآمرون ضدّهم شخصيًّا. المتطرّفون السّياسيّون أكثر تشكّكًا من المعتدلين في الأحداث المجتمعيّة والسّياسيّة، وليس حول الأشخاص الّذين يقابلونهم في حياتهم الشّخصية.

أثبتت دراسة حديثة في ألمانيا أنّ تنظير المؤامرة أقوى بين اليسار واليمين الشّعبويّين مقارنة بالمعتدلين[53]. نظرت هذه الدّراسة في كيفيّة توقّع تفضيل الحزب لمتغيّر اختلاف فرديّ يسمّى «عقليّة المؤامرة». وتعكس عقليّة المؤامرة ميلًا عامًّا إلى إدراك المؤامرات في العالم، وهي تُقَيَّم من خلال السّؤال عمّا إذا كان المشاركون يتّفقون مع البيانات التّآمريّة العامّة مثل، «هناك منظّمات سرّيّة لها تأثير كبير في القرارات السّياسيّة». كشفت هذه الدّراسة أنّ عقليّة المؤامرة كانت مرّة أخرى أعلى في التّطرّف السّياسيّ: على وجه التّحديد، سجّل النّاخبون من الحزب

(53).Uscinski, J. E., & Parent, J. M. (2014). American conspiracy theories. New York, NY: Oxford University Press.

الاشتراكيّ الرّاديكاليّ الألمانيّ (أي اليسار الشّعبويّ) وناخبو الأحزاب الألمانيّة المناهضة للهجرة (أي اليمين الشّعبويّ) أعلى الدّرجات في عقليّة المؤامرة. وكانت عقليّة المؤامرة هي الأقلّ بين الأشخاص الّذين يصوّتون لأحزاب الوسط والتّيّار السّائد.

- أطراف الطّيف السّياسيّ في الدّيمقراطيات الحديثة - على وجه التّحديد، اليسار الشعبويّ واليمين الشّعبويّ. ومع ذلك، هناك حاجة إلى مزيد من الأدلّة من مختلف البلدان. قد يتكهّن المرء على سبيل المثال بأنّ نظريّات المؤامرة أكثر وضوحًا نسبيًّا في اليسار السّياسيّ بالبلدان الّتي يميل فيها اليسار إلى أن يكون أكثر راديكاليّة (على سبيل المثال، أجزاء من أمريكا اللاتينيّة) وأكثر وضوحًا نسبيًّا في اليمين السّياسيّ بالبلدان الّتي يميل فيها اليمين إلى أن يكون أكثر راديكاليّة (على سبيل المثال، الولايات المتّحدة). علاوة على ذلك، تتأثّر نظريّات المؤامرة بمسألة من هو في السّلطة في وقت معيّن. لاحظ علماء السّياسة أنّ احتمال ظهور نظريّات المؤامرة حول الحكومة بين الأشخاص الّذين صوّتوا للأحزاب الحاكمة أقلّ ممّا هي بين الأشخاص الّذين صوّتوا لأحزاب المعارضة[54]. على الرّغم من هذه التّعقيدات، تشير الأدلّة إلى أنّ نظريّات المؤامرة في المجتمعات الدّيمقراطيّة تكون شائعة بشكل خاصّ بين الأشخاص ذوي المعتقدات السّياسيّة المتطرّفة.

الجماعات المتطرّفة على الهامش

أُجرِيت الدّراسات المذكورة سابقًا على عيّنات من المواطنين العاديّين ووجدت تباينًا على مستوى نظريّات المؤامرة بين الأشخاص الّذين يصوّتون للأحزاب الشّعبويّة مقابل الأشخاص الّذين يصوّتون لأحزاب معتدلة نسبيًّا. تشارك

(54).Van Elk, M. (2013). Paranormal believers are more prone to illusory agency detection than skeptics. Consciousness and Cognition, 22 , 1041–1046.

الأحزاب الشّعبوية التي ناقشناها في العمليّة الدّيمقراطيّة من خلال المشاركة في البرلمانات الوطنيّة، ومع ذلك، تحظى بتأييد جزء كبير من المواطنين العاديّين. ماذا عن المجموعات الهامشيّة الأكثر تطرّفًا، تلك الّتي غالبًا ما تخالف القانون، وفي بعض الأحيان تكون عرضة للعنف؟ فكّر في الجماعات السرّيّة للنازيّين الجدد أو المتعصّبين للبيض (أقصى اليمين)، والمتطرّفين المناهضين للعولمة أو الجماعات الثّوريّة الشّيوعيّة (أقصى اليسار)، وكذلك الجماعات الدّينيّة المتطرّفة مثل القاعدة، والدّولة الإسلاميّة، والمتطرّفين المسيحيّين المناهضين للإجهاض، أو الطّوائف.. ما مدى انتشار نظريّات المؤامرة بين أعضاء هذه الجماعات المتطرّفة في المجتمع؟ وما هو الدّور المحدّد الّذي تلعبه نظريّات المؤامرة في مثل هذه المجموعات - تحديدًا، هل نظريّات المؤامرة تلهم العنف بين أعضائها؟

كما هو الحال مع الأنظمة المتطرّفة القمعيّة الهامشيّة، فإنّ إجراء البحوث بين أعضاء هذه الجماعات المتطرّفة الهامشيّة باستخدام استبيانات نفسيّة موحّدة مهمّة صعبة، إن لم تكن مستحيلة. أوّلًا، قد يحتاج المرء إلى العثور على أعضاء من هذه المجموعات الهامشيّة مع ضمان استعدادهم للمشاركة في الأبحاث الّتي ستمثّل دون شكٍّ تحدّيا كبيرا، لاسيّما بالنّسبة إلى المجموعات الّتي ترتكب الجرائم والمعرّضة للعنف. ثانيًا، حتّى إذا وجد المرء عددًا قليلًا من أعضاء هذه المجموعات على استعداد للمشاركة في البحث، فمن المشكوك فيه أن يجد المرء عددًا كافيًا من الأعضاء لإجراء بحثٍ مسحٍ نفسيّ، لأنّه ذو صبغة كمّيّة، تُحلَّل فيه ردود المشاركين على الاستبيانات من خلال التّحليلات الإحصائيّة، ولكي تكون هذه التّحليلات ذات مغزى، يحتاج المرء إلى حجم عيّنة كبير (يعتمد حجم العيّنة المطلوب بالضّبط على عدد من القضايا مثل عدد المتغيّرات الّتي فُحِصت وحجم التأثير المتوقّع، ولكن بوصفه مؤشّرً تقريبيًّا، قد يحتاج المرء بسهولة إلى 200 مشارك كحدّ أدنى). وهكذا، فإنّ طرق البحث الكمّيّ تكون صعبة إذا كان المرء يطمح إلى دراسة هذه المجموعات الهامشيّة.

وفي المقابل فإنّ الطّرق المختلفة للبحث النّوعيّ لا تتطلّب عيّنات بالأحجام نفسها. حلّلت دراسة مثيرة للاهتمام، أجراها جيمي بارتليت وكارل ميلر، أكثرَ من 50 مجموعة متطرّفة في المملكة المتّحدة وأوروبّا والولايات المتّحدة من خلال أساليب البحث النّوعيّ"[55]. نظر هؤلاء الباحثون على وجه التّحديد في ما إذا ذُكِرت نظريّات المؤامرة في الوثائق الرّسميّة أو الخطب المسجّلة لكلّ مجموعة، وإلى أيّ مدى تحقّق ذلك. تضمّنت الدّراسة مجموعة من الجماعات الدّينيّة المتطرّفة، بما في ذلك القاعدة، حماس، جيش الرّبّ، حملان المسيح، الجماعات اليهوديّة المتطرّفة، ومختلف الطّوائف مثل «معابد الشّعوب». وشملت الدّراسة أيضًا مجموعات اليمين المتطرّف مثل آريان نيشنزوكو كلوكس كلان وحزب الشّعب البريطانيّ وميليشيات يمينيّة مختلفة. في أقصى اليسار، شملت الدّراسة مجموعات مثل اللّواء الغاضب، وفصيل الجيش الأحمر، والتّطرّف المناهض للعولمة. وتضمّنت الدّراسة عددًا قليلًا من الجماعات المتطرّفة أيديولوجيًّا التي لا يمكن تصنيفها بوضوح على أنّها يمين أو يسار ما بعد سياسيّ أو مجموعة دينيّة أصوليّة، مثل الجماعات المتطرّفة المناهضة للتّكنولوجيا، «لجنة تصفية الحواسيب وسرقتها» (وهي مجموعة عنيفة كانت مسؤولة عن الهجمات على مراكز الكمبيوتر المختلفة في أوائل الثمانينيّات)، والجماعات السياسيّة الثّوريّة الّتي حاربت كلّا من الشّيوعيّة والرّأسماليّة.

من المؤكّد أنّ هذا التّنوّع الّذي يَسِم مَن يمثّل الجماعات المتطرّفة من المجموعات والفصائل والأحزاب ليس بالدّرجة نفسها من الغرابة، فبعضها يتجاوز بعضًا من هذه الجهة، فهي ليست متماثلة على المستوى الإيديولوجيّ، وإذا وُجِد تقاطع فيما بينها فهو أنّ وثائقهم الرسميّة والخطب المسجّلة من قبل قادتها تحتوي على نظريّات تآمريّة. لا شكّ أنّه لم يكن لدى كلّ مجموعة هامشيّة في هذه الدّراسة وثائق تُظهر أدلّة واضحة ومباشرة على نظريّات المؤامرة فلم يجد

(55)VanHarreveld, F., Rutjens, B. T., Schneider, I. K., Nohlen, H. U., &Keskinis, K. (2014). In doubt and disorderly: Ambivalence promotes compensatory perceptions of order. Journal of Experimental Psychology: General, 143, 1666–1676.

الباحثون، مثلا، نظريّات المؤامرة في وثائق الجيش الجمهوريّ الإيرلنديّ الحقيقيّ"Real IRA". لكن بالنسبة إلى الغالبيّة العظمى من المجموعات الّتي كانت قيد التّحقيق فقد لاحظ هؤلاء الباحثون نظريّات المؤامرة في توثيقهم. كانت هناك اختلافات طفيفة في نظريّات المؤامرة التي التزمت بها الجماعات، إذ يعتقد بعضها أنّ المؤامرات اليهوديّة تسيطر على حكومات العالم (أقصى اليمين)، بينما يؤمن البعض الآخر بمؤامرة غربيّة لتدمير الإسلام (مثل القاعدة)، ومرّة أخرى يعتقد البعض الآخر في مؤامرة المموّلين والمصرفيّين للحصول على سلطة مفرطة على العالم (أقصى اليسار)، على سبيل المثال لا الحصر. وفضلا عمّا تقدّم نظفر بأوجه تشابه بين هذه المجموعات، تتجاوز نظريّات المؤامرة أو تندرج خلالها من قبيل الاعتقاد المتكرّر في كثير من الأحيان بحكومة عالميّة شموليّة (على سبيل المثال، «نظام عالميّ جديد»). وقد خلص مؤلّفو هذه الدّراسة إلى أنّه «من اللّافت للنظر أنّ هناك تداخلًا وانصهارًا كبيرًا بين الكثير من هذه المؤامرات، حتّى عبر المجموعات الموجودة على طرفَي نقيض من الطيف الأيديولوجي» (ص 4).

كانت بعض الجماعات المتطرّفة الهامشيّة الخاضعة للتّحقيق عنيفةً، والبعض الآخر لم يكن كذلك. هل كان هناك فرق بين الجماعات المتطرّفة الهامشيّة العنيفة وغير العنيفة؟ وجد هؤلاء الباحثون أنّ نظريّات المؤامرة حدثت بين الجماعات العنيفة وغير العنيفة. لذلك سيكون من السّهل جدًّا استنتاج أنّ نظريّات المؤامرة تؤدّي بالضّرورة إلى العنف: على الرّغم من أنّ هذه النظريّات يمكن أن تلهم أحيانًا العنف المتطرّف مثل الإرهاب، إلّا أنّها ليست مضطرّة إلى ذلك. بدلاً من هذا، خلص بارتليت وميلر إلى أنّ نظريّات المؤامرة تعمل كـ«مضاعف للتّطرّف»: نظريّات المؤامرة تفاقم الدّيناميكيّات الكامنة وراء التّطرّف، وتعمل على تسريعها بالضّرورة. علاوة على ذلك، يمكنهم المساهمة في العمليّة التي تتحوّل عبرها الجماعات المتطرّفة أيديولوجيًّا إلى عنيفة. بعبارة أخرى، فإنّ نظريّات المؤامرة تجعل الجماعات أكثر تطرّفًا من النّاحية الإيديولوجيّة، وبمجرّد وصول هذا التّطرف إلى

نقطة معيّنة، يمكن لنظريّات المؤامرة أن تساهم لاحقًا في تحوّل هذه الجماعات إلى العنف.

يسلّط بارتليت وميلر الضّوء على ثلاث عمليّات هي الأكثر خصوصيّة، تعمل من خلالها نظريّات المؤامرة، وتسهم في تغذية التّطرّف، وتقدّم لنا العمليّة الثّالثة والأخيرة وصفا دقيقا للدّور الّذي تلعبه نظريّات المؤامرة في تحوّل الجماعات المتطرّفة إلى عنيفة. العمليّة الأولى هي أنّ نظريّات المؤامرة تُشيطن الغرباء. فالجماعات المتطرّفة الهامشيّة تميّز «نحن» تمييزًا حادًّا من «هم»، وتمكّن نظريّات المؤامرة هذه الجماعات من ترسيخ هويّة قويّة بين أعضائها من خلال تأجيج النّفور من الجماعات المختلفة. العمليّة الثانية هي أنّ نظريّات المؤامرة تمكّن الجماعات المتطرّفة من التّشكيك في نقد الجماعة. قد تهدّد الأصوات المعارضة تماسك الجماعات المتطرّفة، لكنّ نظريّات المؤامرة تمكّنها من تصوير المنتقدين على أنّهم جزءٌ من مؤامرة معادية. ثالثًا، يمكن لنظريّات المؤامرة أن تمنح الجماعات المتطرّفة الهامشيّة شعورًا بأنّ العنف هو الخيار الوحيد المتبقّي.

لئن كانت هذه الأفكار مقنعة، فإنّ هناك حاجة إلى مزيد من البحث لاختبار التّرتيب السّببيّ الذي يقترحه «**التطرّف المضاعف**-Radicalizing Multiplier» بشكل أوضح. على وجه التحديد، يشير تحليل الدّراسة إلى أنّ نظريّات المؤامرة تؤدّي إلى التّطرّف، ولكن لمزيد من الثقة في هذا الاستنتاج، نحتاج إلى المزيد من الأدلّة المباشرة حول السّبب الّذي يكمنُ خلفَ ذلكَ. مثلًا، هل الإيمان المفرط بنظريّات المؤامرة يُنبئُ بمدى بلوغِ الشّخص درجة متقدّمة من التطرّف؟ في الوقت الحاليّ لا يمكننا أن نستنتج على وجه اليقين ما إذا كانت نظريّات المؤامرة سببًا في التّطرّف أم لا، أو ما إذا كان التّطرّف سببًا في نشوءِ نظريّات المؤامرة، أو ما إذا كانت نظريّات المؤامرة والتّطرّف يعزّز كلّ منهما الآخر. لكنّ ما يبدو واضحًا هو أنّ نظريّات المؤامرة تعدّ جزءًا من عمليّة التطرّف بأكملها: فهي تلعب دورًا في الدّيناميكيّات الّتي تحوّل النّاس من معتدلينَ إلى متطرّفين وفي الدّيناميكيات الّتي

تجعل المتطرّفين يلجؤون إلى العنف.

الخلاصة:

درسنا في هذا الفصل الصّلة بين الإيديولوجيا ونظريّات المؤامرة، ووجدنا أنّ الإيمان بنظريّات المؤامرة سائدٌ بشكل خاصّ بين الأشخاص الّذين يؤيّدون الأيديولوجيّات المتطرّفة. هذا الاستنتاج يأتي من ثلاثة مصادر للأدلّة. أوّلًا، تشير الأدلّة التّاريخيّة إلى أنّ نظريّات المؤامرة جزءٌ أساسيّ من الأنظمة القمعيّة الديكتاتوريّة المتطرّفة. ثانيًا، يكشف بحث علم النّفس السّياسيّ أنّ من المرجّح في الدّيمقراطيّات الحديثة، أن يؤمن النّاخبون الشّعبويّون بنظريّات المؤامرة أكثر من الأشخاص الّذين يصوّتون للأحزاب المعتدلة والسّائدة. ثالثًا، يشير تحليل نوعيّ للجماعات المتطرّفة الهامشيّة إلى أنّ نظريّات المؤامرة، بغضّ النّظر عن المحتوى الإيديولوجيّ، شائعةٌ بين هذه الجماعات. ترتبط نظريّات المؤامرة ارتباطًا جوهريًا بالمناخ السّياسيّ المستقطب، إذ تصوّر الجماعات الإيديولوجيّة المختلفة الجماعات المعارضة على أنّها عدوّة.

شرح نظريّات المؤامرة والتّقليلُ من سطوتها

بعد مقابلة حول نظريّات المؤامرة أجرتها المجلّة المحلّيّة بجامعتي، سألني الصّحفيّ عمّا إذا كنت أمانع في التقاط صورتي وأنا أرتدي قبّعة من ورق الألمنيوم. أبديت شيئا من الموافقة على حين غرّة، واعتبرتها مزحة جيّدة في ذلك الوقت (على الرّغم من أنّني أعترف بأنّي كنت سأنظر في الطّلب لو علمت أنّ الصّورة ستنتهي على غلاف المجلّة الأماميّ). وفي وقت لاحق فكّرت مليًّا في هذا الطّلب، وأدركت أنّه يعكس الصّورة النمطيّة التي يمتلكها أناس كثيرون عن منظّري المؤامرة، باعتبارهم أفرادًا، يعيشون تحت طائلة الحرج الاجتماعيّ، فقدوا كلّ اتّصال بالواقع، ويتصوّرون مثلا أنّ القبّعات المصنوعة من الألمنيوم ستحميهم من الإشعاع الذي تستخدمه الحكومة للتّلاعب بأدمغتهم. بعض النّظريّات الّتي نوقشت في هذا الكتاب هي في الواقع غريبة بشكل استثنائيّ، بدءًا من السّحالي الغريبة إلى نظريّات الكيمياء فنظريّات الأرض المجوّفة.

لكن رغم هذه النّظريّات الغريبة، فإنّ توصيفات «قبّعة الألمنيوم--Tinfoil Hat» هذه لا تنصف الظّاهرة المجتمعيّة لنظريّات المؤامرة، ولا للأشخاص الّذين يؤمنون بها. ولئن كانَ عدد المواطنين الّذين يؤمنون بنظريّات المؤامرة مثل السّحالي الغريبة أو الكيمتريل مرتفعًا بشكل مدهش، فإنّهم لا يزالون أقلّيّة صغيرة من إجماليّ السّكّان. الأهمّ من ذلك هو مدى انتشار الكثير من نظريّات المؤامرة

«السّائدة»، مثل أن تكون هجمات 11 سبتمبر الإرهابيّة عملًا داخليًّا، واعتبار تغيّر المناخ خدعة، وصناعة الأدوية تنشر أمراضًا خطيرة، وما إلى ذلك. لا يحتاج المرء إلى أن يكون محرجًا اجتماعيًّا أو بعيدًا عن الواقع لتصديق نظريّات المؤامرة السّائدة هذه. على العكس من ذلك، فإنّ أجزاء كبيرة من المواطنين العاديّين، والملتزمين بالقانون، والعاملين بشكل جيّد يؤمنون بنظريّات المؤامرة هذه. ولئن كانت تلك النظريّات أكثر شيوعًا إلى حدّ مّا في الشّريحة الأقلّ تعليمًا من المجتمع، فإنّها ليست مقصورة بأيّ حال على هذه الشّريحة، إذ تظهر أيضًا في صفوف النّخبة، من فنّانين، ورجال قانون، وعلماء، ومديرين، بل إنّنا نرصدها لدى الرّئيس الأمريكيّ نفسه، باعتبارها ورقة رابحة. تعدّ نظريّات المؤامرة جزءًا شائعًا من الخطاب العامّ، ولا نحتاج إلى الاتّصال بالإنترنت للتّعرّف عليها، إذ يمكننا أيضًا سماعها في الحانات، وفي الحفلات، وفي الشّوارع، وفي وسائل النّقل العامّ، وفي محلّات البقالة..

لماذا تنتشر نظريّات المؤامرة؟ في هذا الفصل الأخير والختاميّ، سألخّص أوّلًا رؤى الفصول السّابقة في محاولة لفهم نظريّات المؤامرة باعتبارها ظاهرة مجتمعيّة مشتركة. أحد الأخطاء الرّئيسيّة الّتي يمكن أن يرتكبها المرء في تفسير معتقدات المؤامرة هو اعتبارها مرضيّة. بدلًا من ذلك، سيكون استنتاجي هو أنّ نظريّات المؤامرة تنبثق من الاستجابات النّفسيّة المنتظمة والمتوقّعة لمشاعر عدم اليقين والخوف. بعد استنتاجاتي حول سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة، سأطرح بعض اقتراحات حول ما يمكن أن يفعله صانعو السّياسة للحدّ من انتشارها بين السّكّان.

لماذا تنتشرُ نظريّة المؤامرة بين النّاس

تشكّل المشاعر السّلبيّة - ولاسيّما مشاعر الخوف وعدم اليقين - عاملًا سببيًّا رئيسيًّا لتفسير سبب انتشار نظريّات المؤامرة بين شرائح كبيرة من السّكّان. تفسّر هذه المشاعر السّلبيّة سبب ازدهار نظريّات المؤامرة في أعقاب حالات الأزمات

المجتمعيّة. ويشمل ذلك الأزمات المفاجئة مثل الضّربات الإرهابيّة أو الكوارث الطّبيعيّة أو الموت غير المتوقّع لشخصيّة عامّة والأزمات المستمرّة مثل تغيّر المناخ أو الأوبئة أو الحروب. ولكن أيضًا في حالة عدم وجود حدث أزمة حقيقيّ لا لبس فيه وعلى قدر من الموضوعيّة، يمكن لنظريّات المؤامرة أن تسبّب المشاعر السّلبيّة. عدم اليقين بشأن المستقبل، ومشاعر الاغتراب، وهياكل السّلطة السريعة التّغيّر في المجتمع، والتّقدّم التّكنولوجيّ السّريع، أو عدم الثقة العميق الجذور تجاه السّلطات الرّسمية يمكن أن تحفّز جميعًا نظريّات المؤامرة. تثير المشاعر السّلبيّة عمليّات صنع المعنى الّتي يفترض فيها النّاس الأسوأ، ممّا يزيد من مشاعر الشّكّ لديهم تجاه الجماعات الخارجيّة القويّة أو غير المتشابهة أو غير الموثوقة. يمكن تشريح هذه المشاعر المشبوهة في مجموعة من العمليّات النّفسيّة الأكثر تحديدًا، والمميّزة لنظريّات المؤامرة، ويمكن تلخيصها من حيث الأفكار التكميليّة الثّلاث التّالية.

الفكرة الأولى: نظريّات المؤامرة متجذّرة في تشويه العمليّات المعرفيّة الشائعة والوظيفيّة، ولاسيّما إدراك الأنماط وكشف القوّة الفاعلة.

يدرك النّاس الأنماط ويكتشفون القوّة الفاعلة، وهذه خصائص وظيفيّة عالية للعقل البشريّ. دون قدرتنا على إدراك الأنماط، لن نكون قادرين على تمييز الخير من الشّرّ، والصّحيّ من السّامّ، أو الآمن من الخطير. يدور تصوّر الأنماط حول القدرة البشريّة على التّعلّم التّرابطيّ-Associative Learning: من خلال الخبرة والتّعلّم القائم على الملاحظة، نطوّر نظريّات سببيّة حول العالم، غالبًا ما تكون صحيحة وتمكّننا من التنبّؤ بعواقب أفعالنا - مثل أنّنا قد نكسر ساقنا إذا قفزنا من فوق سقف مرتفع، أو أنّنا قد نأسف لتدخين سيجارة أثناء ملء سيّارتنا بالبنزين. ودون القدرة على اكتشاف العنصر الفاعل، سيكون النّاس عاجزين اجتماعيًّا. يمكّننا اكتشاف القوّة الفاعلة من تحديد ما إذا كان الأشخاص قد قاموا بأفعال معيّنة عن قصد أم لا، ويساعدنا على توقّع السّلوك المستقبليّ للآخرين من خلال

فهم نواياهم، والتّعرّف على الفاعل بشكل صحيح، يمكننا معرفة متى يكون الآخرون طيّبين أو عدوانيّين أو مسيئين للحكم على خياراتنا. يمنعنا الاكتشاف الدّقيق للقوّة العاملة أيضًا من الشّعور بالرّعب كلّما رأينا ظلًّا غريبًا، ويجعلنا قادرين على تقدير متى يمكن احتضان كلب ينبح بأمان، ومتى يجب التعامل معه بحذر.

ومع ذلك، فإن الشّعور بعدم اليقين والخوف يتسبّب في تنشيط الميول البشريّة لإدراك الأنماط واكتشاف الفاعليّة، بشكل مفرط أحيانا. تتجسّد الأنماط عند بعضهم، في ما هو مصادفات، أو مشاعر خوف وعدم يقين، على مستوى الواقع، من شأنها أن تؤدّي إلى تفاقم مثل هذا التّصوّر الوهميّ. تظهر الدّراسات على سبيل المثال أنّه عندما يفتقر النّاس إلى السّيطرة، فإنّهم لا يبدؤون فقط في رؤية المؤامرات، بل إنّ الأنماط تتمثّل لهم في محفّزات جديدة، من قبيل الصّور في الضّوضاء العشوائيّة، والأنماط في معلومات سوق الأسهم، والخرافات(56). وبالمثل، كثيرًا ما يكتشف الأشخاص وجود عاملٍ في حالة عدم وجود أيّ عاملٍ، كما هو موضّح في الدّراسة الكلاسيكيّة الّتي أجراها Heider–Simmelو حيث نسب جميع المشاركين القوّة العاملة إلى أشكال هندسيّة بسيطة على الشاشة. إنّ مشاعر الخوف وعدم اليقين تحفّز الميل البشريّ إلى اكتشاف الفاعليّة، ممّا قد يؤدّي إلى نشوء نظريّات المؤامرة، أو إلى معتقدات أخرى تفترض وجودَ عاملٍ معيّنٍ. على سبيل المثال، ففي ظلّ ظروف الخوف وعدم اليقين، يعتقد النّاس بقوّة أكبر في الآلهة المشخّصة والفاعلة(57).

إنّ العمليّات المعرفيّة الكامنة وراء نظريّات المؤامرة ليست مرضيّة؛ هي عمليّات منتظمة تؤدّيها عقولنا بشكل مستمرّ ويتمّ تنشيطها بقوّة أكبر كردّ فعل

---

(56).VanProoijen, J.-W. (2017). Why education predicts decreased belief in conspiracy theories. Applied Cognitive Psychology, 31 ,

(57).VanProoijen, J.-W., & Acker, M. (2015). The influence of control on belief in conspiracy theories: Conceptual and applied extensions. Applied Cognitive Psychology, 29 , 753–761.

على عدم اليقين والخوف. في مواقف كثيرة، يمكن أن تكون العلاقة بين عدم اليقين وتفعيل هذه الوحدات المعرفيّة وظيفيّة أيضًا: عندما يكون هناك خطر حقيقيّ، يساعد تصوّر النّمط واكتشاف القوّة العاملة النّاس على اكتشاف طبيعة التّهديد واتّخاذ الإجراء المناسب. ولذلك، فإنّ أحد أسباب انتشار نظريّات المؤامرة بين المواطنين العاديّين هو أنّها تنطوي على عمليّات معرفيّة عاديّة وعمليّة.

الفكرة الثانية: نظريّات المؤامرة متجذّرة في الصّراع داخل المجموعة.

البشر كائنات اجتماعيّة. يميل النّاس بشكل طبيعيّ إلى الانتماء إلى الآخرين، ولديهم حاجة أساسيّة إلى الانتماء إلى مجموعات اجتماعيّة. تصبح قوّة «الحاجة إلى الانتماء» واضحة بشكل خاصّ عندما يُستَبعد الأشخاص من قبل الآخرين أو من قبل المجموعات الّتي يقدّرونها، ومن ذلك التّباعد في العلاقات الغراميّة، أو الإقصاء، والرّفض من قبل أصدقاء سابقين، أو عدم إمكانيّة مشاركتهم الآخرين تجمّعا مّا أو احتفالا، يُصنّف هذا الاستبعاد الاجتماعيّ من بين أكثر التّجارب كرهًا في الحياة، ممّا يقوّض احترام الذّات ويقلّل من الشّعور بالانتماء، وبأنّ المرء مسيطر، وبأنّ للحياة معنى. الإقصاء الاجتماعيّ مؤلم - في الواقع، إذ تشير الدّلائل العصبيّة إلى أنّ تجربة الإقصاء تنشّط مناطق الدّماغ نفسها الّتي ينشط فيها الألم الجسديّ[58]. لماذا يعتبر الاستبعاد الاجتماعيّ مؤلمًا جدًّا؟ لأنّه من طبيعتنا الرّغبة في إقامة علاقات اجتماعيّة ذات مغزًى مع الآخرين، ويشكّل الإقصاء الاجتماعيّ تهديدًا لهذه الرّغبة. لدينا بشكل غريزيّ حاجةٌ إلى ربط أنفسنا بالآخرين من ذوي القيمة، وأن ندعو بفخر ما ينتج عن ذلك من «نحن» و «نحن مجتمعين».

لكنّ النّاس لا يربطون أنفسهم بشكل عشوائيّ بجميع الأشخاص الآخرين. عندما يكون هناك «نحن»، غالبًا ما يكون هناك أيضًا «هم» - مجموعة من الغرباء

---

(58). Van Prooijen, J.-W., & De Vries, R. E. (2016). Organizational conspiracy beliefs: Implications for leadership styles and employee outcomes. Journal of Business and Psychology, 31 , 479–491.

تختلف عن «نحن». يصنّف النّاس عالمهم الاجتماعيّ باستمرار إلى مجموعات داخليّة وخارجيّة، وتشكّل مجموعاتهم الدّاخليّة جزءًا مهمًّا من هويّتهم. نتيجة لذلك، يميل النّاس إلى تبنّي وجهة نظر متضخّمة لمجموعاتهم الدّاخليّة، وعلى سبيل المثال، ينظرون إلى مجموعاتهم على أنّها متفوّقة أخلاقيًّا ممّا يعني ضمنيًّا أنّ المجموعات المختلفة أدنى أخلاقيًّا. يزيد الشّعور بعدم اليقين والخوف من ميل الإنسان إلى تصنيف النّاس إلى «نحن» مقابل «هم»، ويؤجّج الصّراع بين الجماعات[59]. يمكن أن يتّخذ هذا الصّراع بين المجموعات أشكالًا عديدةً وقد يتصاعد إلى درجات مختلفة، بدءًا من الأجواء غير المريحة في مباراة لكرة القدم، إلى الحروب الدّمويّة والإبادة الجماعيّة. ولكنّ ما تشترك فيه معظم حالات الصّراع بين المجموعات هو (1) أنّ الناس يربطون هويّتهم الخاصّة بشكل أقوى بالمجموعة (2) أنّهم ينظرون إلى المجموعة الخارجيّة على أنّها تهديد.

نظريّات المؤامرة هي جزء لا يتجزّأ من مثل هذا الصّراع بين الجماعات، وتعكس مشاعر الشّكوك المتبادلة الّتي تظهر على جانبي الصّراع. على وجه التّحديد، وجدت الأبحاث أنّ نظريّات المؤامرة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بعنصرَي الصّراع بين المجموعات. فكلّما ازداد ربط النّاس هويّتهم الخاصّة بالمجموعة الدّاخليّة، ازداد قلقهم عندما يتعرّض أحد أعضاء المجموعة للأذى، وكان الأمر أكثر إغراءً للتّوصّل إلى تفسيرات تآمريّة تلقي باللّوم على مجموعة خارجيّة معادية، ولاسيّما إذا حدث الضّرر تحت ظروف غامضة إلى حدّ مّا. ومن جهة أخرى، كلّما كانت المجموعة الخارجيّة أكثر تهديدًا لأنّها أكثر قوّةً وتقدّمًا من النّاحية التّكنولوجيّة وتحمل صورًا نمطية سلبية أو لأنّها متفوّقة عدديًّا، ازداد احتمال تصديق النّاس للنّظريّات الّتي تنصّ على أنّ أعضاء هذه المجموعة الخارجيّة يتآمرون ضدّ الجماعة. تشير هذه الأفكار مجتمعة إلى أنّ نظريّات المؤامرة تعكس

(59).Van Prooijen, J.-W., Douglas, K., & De Inocencio, C. (in press). Connecting the dots: Illusory pattern perception predicts belief in conspiracies and the supernatural. European Journal of Social Psychology.

دافعًا لحماية مجموعة محترمة من مجموعة خارجيّة محتملة الخطورة.

وفضلا عمّا تقدّم، فإنّ العمليّات الاجتماعيّة الكامنة وراء نظريّات المؤامرة ليست مرضيّة: نظريّات المؤامرة ناتجة عن الميل البشريّ الأساسيّ إلى تصنيف العالم في مجموعات خارجيّة، وجماعات خارجيّة، وعن الرّغبة المقابلة في حماية المجموعة من الجماعات الخارجيّة القويّة الّتي قد تكون خطيرة. إنّ المشاعر المشبوهة الّتي يشعر بها الأشخاص تجاه المجموعات المختلفة يجب ألّا تكون غير عقلانيّة ويمكن أن يكون لها في الواقع وظيفة وقائيّة: في بعض الأحيان يمكن أن تكون الجماعات الخارجيّة خطيرة أو خادعة وتخطّط لأعمال خبيثة ضدّ مجموعة واحدة. ولكن كما رأينا خلال هذا الكتاب، يرتكب النّاس أخطاء عديدة في هذه العمليّة، وكثيرا ما يرون مؤامرات حيث من غير المحتمل أن تكون هناك واحدة. باختصار، يوجد تباين بين المجموعات في تمثّلها لنظريّات المؤامرة: عدم اليقين والخوف يحفّزان نظريّات المؤامرة، ولاسيّما إذا وجدت مجموعة خارجيّة مشبوهة، تعدّ مسؤولة عن الضّرر الذي تعرّض له أعضاء المجموعة.

الفكرة الثالثة: نظريّات المؤامرة متجذّرة في الإيديولوجيّات القويّة.

لدى النّاس منظور أخلاقيّ حول العالم، ويقيّمون سلوكهم وسلوك الآخرين، على أنّه «صحيح» أو «خاطئ» من النّاحية الأخلاقيّة. ترتبط هذه الأحكام الأخلاقيّة ارتباطًا وثيقًا بمعايير النّاس وقيمهم، وتشكّل أساس المعتقدات الأيديولوجيّة للنّاس حول الشّكل الّذي يجب أن يبدو عليه المجتمع الجيّد. ومع ذلك، فإنّ المعتقدات الأيديولوجيّة ذاتيّة، ويقدّر الناس في أحيان كثيرة أنّ الآخرين قد تكون لديهم وجهة نظرٍ مختلفة حول كيفيّة حلّ القضايا المجتمعيّة الملحّة. تنعكس هذه التّعدّديّة الإيديولوجيّة في الكثير من الآراء السّياسيّة المختلفة لدى المواطنين، والأحزاب السّياسية المختلفة في البرلمان، والمناقشات المكثّفة بين النّاس حول مواضيع مهمّة مثل تغيّر المناخ، والفقر، والصّحّة العامّة. لكن في

بعض الأحيان، يؤيّد النّاس معتقداتهم الإيديولوجيّة بمثل هذه الحماسة والاقتناع بأنّ الآراء البديلة تبدو غير مقبولة. لم تعد معتقداتهم الإيديولوجيّة ذاتيّة بعد الآن ولكن يبدو أنّها تملي حقيقة موضوعيّة لا يمكن إنكارها. تقود مثل هذه المعتقدات الأيديولوجيّة القويّة النّاس إلى دعم الحركات السّياسيّة المتطرّفة أو المنظّمات الدّينيّة الأصوليّة.

تحفّز مشاعر الخوف وعدم اليقين مثل هذه المعتقدات الإيديولوجيّة الصّارمة والمتطرّفة. قد يبدو هذا التّأكيد متناقضًا إلى حدّ مّا، نظرًا إلى أنّ إحدى سمات التّطرّف الأيديولوجيّ هي الاقتناع المفرط بالصّحّة الموضوعيّة لآراء الفرد. لكنّ التّطرّف يميل إلى الزّيادة نتيجة للظّروف المجتمعيّة الّتي تثير عدم اليقين والخوف، مثل الرّكود الاقتصاديّ أو الاضطرابات المجتمعيّة أو أزمة اللّاجئين الّتي شهدها الاتّحاد الأوروبّيّ مؤخّرًا. إحدى النّظريّات النّفسيّة لشرح هذا التّناقض هي أنّ عدم اليقين والخوف يؤدّيان إلى عمليّة تسمّى «القناعة التّعويضيّة»: يعوّض النّاس عن مشاعرهم غير المؤكّدة في مجال مّا، مع زيادة اليقين في المجالات الأخرى، وغالبًا ما تكون معتقداتهم الإيديولوجيّة[60]. مثل هذه القناعة التّعويضيّة باعتبارها تفسيرًا للإيديولوجيّات المتطرّفة تتماشى مع الرّؤى السّياسيّة الكلّيّة حول التّطرّف. درسَ العالم السّياسيّ مانوس ميدلاركسي بشكل مكثف صعود الأنظمة المتطرّفة في جميع أنحاء العالم خلال القرن العشرين، ووجدَ في بحثِهِ أنَّ هناكَ دورًا سببيًّا لانعدام الأمن الّذي يعاني منه المواطنون وأسماهُ بـ «المكاسب السريعة الزّوال»[61]. على وجه التحديد، عادة مّا تسبق صعود التّطرّف في المجتمعات، فترة قصيرة العمر من الازدهار (على سبيل المثال، من حيث الأراضي أو النّموّ

(60).VanProoijen, J.-W., &Krouwel, A. P. M. (2017). Extreme political beliefs predict dogmatic intolerance. Social Psychological and Personality Science, 8 , 292–300.
(61).VanProoijen, J.-W., Krouwel, A. P. M., Boiten, M., &Eendebak, L. (2015). Fear among the extremes: How political ideology predicts negative emotions and outgroup derogation. Personality and Social Psychology Bulletin, 41, 485–497.

الاقتصاديّ)، تليها فترة من الخسائر الجسيمة، الّتي من شأنها أن تولّد اضطرابات مجتمعيّة تدفع بالكثير من المواطنين إلى تبنّي حركات سياسيّة متطرّفة تقدّم حلولًا سياسيّة بسيطة لعكس الخسائر وإعادة مجد البلاد السّابق.

كما رأينا في الفصل الخامس، من المرجّح أن يؤمن الأشخاص الّذين يؤيّدون الإيديولوجيّات المتطرّفة بنظريّات المؤامرة أكثر من الأشخاص الذين يؤيّدون الأيديولوجيّات المعتدلة. يظهر الدّليل على ذلك من كلا المصدرين التّاريخيّين (أي أنّ الأنظمة المتطرّفة تروّج لنظريّات المؤامرة أكثر من الحكومات الدّيمقراطية المعتدلة)، والأبحاث النفسيّة (أي أنّ الأشخاص الّذين لديهم معتقدات إيديولوجيّة متطرّفة هم أكثر عرضة للاعتقاد بنظريّات المؤامرة من الأشخاص الّذين لديهم معتقدات إيديولوجيّة معتدلة)، والبحث النّوعي (أي، أنّه من المرجّح جدًّا أن تعمل الجماعات المتطرّفة السّرّيّة على نشر نظريّات المؤامرة باعتبارها جزءًا من إيديولوجيّتها الأساسيّة). العلاقة بين التّطرّف ونظريّات المؤامرة مرتبطة جزئيًّا على الأقلّ بالرّؤية السّابقة حول الصّراع بين المجموعات: الإيديولوجيّات المتطرّفة لديها ميلٌ قويّ إلى تأطير العالم في صراع بين «نحن» مقابل «هم» (على سبيل المثال، «نحن» أبناء الشّعب مقابل «هم» النّخب الفاسدة). ولكن هناك أيضًا ما هو أكثر من ذلك. تتلاقى المعتقدات المتطرّفة مع نظريّات المؤامرة في توضيح أسباب المشكلات المجتمعيّة. بدلًا من تقدير مدى تعقيد الكثير من التّطوّرات في المجتمع، تؤكّد الإيديولوجيّات المتطرّفة أنّ المشكلات المجتمعيّة تحدث لأسباب بسيطة، كأن تنجم عن عمدٍ من قبل مجموعات خارجيّة فاسدة.

لقد نجم عن الإيديولوجيّات المتطرّفة والمتشدّدة ضرر كبير في القرن الماضي، وهي بالضّرورة ليست نتيجة لعلم الأمراض. يمكن أن تظهر الإيديولوجيّات المتطرّفة عندما يكون لدى النّاس مخاوف قويّة بشأن الظّلم المجتمعيّ الّذي يتصوّرونه، وعندما يؤيّدون معتقداتهم الأخلاقيّة بقناعة قويّة. وتجدر الإشارة إلى أنّ المعتقدات الإيديولوجيّة القويّة منحت الإنسانيّة ليس فقط الكثير من السيّئات

ولكن أيضًا الكثير من الخير. لا يتمّ إيقاف المتطرّفين عادة من قبل أشخاص متّفقين جدًّا ومستعدّين لتقديم تنازلات على جميع المستويات، بما في ذلك حقوق الإنسان الأساسيّة. وبدلًا من ذلك، يتمّ إيقافهم من قبل متطرّفين آخرين، مثل النّشطاء والحركات السّياسيّة المنظّمة الّتي ترسم خطًّا حقيقيًّا على الرّمال في ما يتعلّق بما هو مقبول أخلاقيًّا وما هو غير مقبول. كانت الإيديولوجيّات القويّة مسؤولة عن الإرهاب والقمع والعبوديّة، ولكنّها كانت أيضًا مسؤولة عن تغيير مجتمعيّ مهمّ مثل زيادة المساواة والدّيمقراطيّة والحماية الدّستوريّة لحقوق الإنسان الأساسيّة. لم يمضِ وقت طويل على اعتبار تفضيل الحقوق المتساوية بغضّ النّظر عن العرق موقفًا إيديولوجيًّا متطرّفًا (ومن الأمثلة على ذلك نظام الفصل العنصريّ في جنوب إفريقيا، الّذي انتهى عام 1991). من العناصر المميّزة للإيديولوجيّات القويّة التي تبنى عليها نظريّات المؤامرة، أنّها تدورُ في أغلب الأحيان حول الجماعات التي لديها معتقدات أيديولوجيّة معاكسة.

تقدّم هذه الرّؤى التّكميليّة الثلاث تفسيرًا مباشرًا لانتشار نظريّات المؤامرة. لماذا تنتشر نظريّات المؤامرة بين المواطنين العاديّين؟ لأنّ نظريّات المؤامرة متجذّرة في العمليّات النّفسيّة العاديّة الّتي تضخّمها المشاعر السّلبيّة. المواقف الّتي تثير عدم اليقين والخوف تزيد من تنشيط العمليّات المعرفيّة الوظيفيّة لإدراك الأنماط واكتشاف الفاعل؛ ثمّ إنّها تحفّز النّزعة البشريّة إلى تصنيف النّاس في مجموعات متضاربة من «نحن» و «هم»؛ وتكثّف أحكام النّاس الأخلاقيّة، وتجعلهم أكثر عرضةً للإيديولوجيّات المتطرّفة. علاوة على ذلك، يمكن للمؤامرات أن تشهد حدوثها الفعليّ، ممّا ينفي عن بعضها اللّامنطقيّة. قد يكون من المفيد أن تشكّ في الجماعات الخارجيّة القويّة، حتّى عندما يرتكب النّاس أخطاء كثيرةً في هذه العمليّة. قد يكون التّعرّض لنظريّات المؤامرة مستوى طبيعيًّا من الحالة البشريّة.

كيفَ نحدُّ من سطوة نظريّات المؤامرة؟

بالنّظر في الملاحظة الّتي تشير إلى حدوث مؤامرات حقيقيّة في بعض الأحيان، أشعر أنّني مضطرّ إلى بدء القسم الخاصّ بالحدّ من نظريّات المؤامرة بتوضيح: الحدّ من نظريّات المؤامرة ليس هو نفسه التّرويج للسّذاجة بين الجمهور. ثمّ إنّه ليس محاولة للحدّ من الفساد أو قمع المعارضة بين المواطنين أو إعفاء المسؤولين الّذين يرتكبون الفساد بالفعل. أن تكون مواطنًا صالحًا يعني أن تكون مواطنًا ناقدًا بنّاءً يتابع تصرّفات صانعي القرار باهتمام كبير، ويتحدّث عن رأيه عندما يلاحظ سياسة شائنةً، أو انتهاكات فعليّة للنزاهة. لكن كما أوضحت خلال هذا الكتاب، فإنّ نظريات مؤامرة كثيرة هي ببساطة غير عقلانيّة، وغالبًا ما تكون ضارّة أيضًا. من غير المنطقيّ بل من الضّار الاعتقاد بأنّ شركات الأدوية تخفي الدّليل على أنّ اللّقاحات تسبّب التوحّد، أو الاعتقاد بأنّ تغيّر المناخ خدعة (يرتكبها الصّينيون أو علماء فاسدون أو غيرهم). يمكن لأفراد الجمهور أن يساهموا في الحكم الرّشيد بالنّقد البنّاء المصمّم لتحسين السّياسة، لكن يمكنهم أيضًا تقويض الحكم الرّشيد بنظريّات المؤامرة الّتي لا أساس لها في الواقع، وتجاهل المشاكل الفعليّة الّتي يواجهها المجتمع. الحدّ من نظريّات المؤامرة لا يعني تجاهل الفساد الفعليّ، بقدر ما يعني تحسين قدرة النّاس على تمييز ما هو أهل للتّصديق من بين الادّعاءات التآمريّة، ممّا هو غير قابل لذلك.

لعلّ التّركيز على نظريّات المؤامرة غير العقلانيّة يشير إلى أنّ تعزيز البعد العقلانيّ، وتقديم المفحم من الحجج، قد يقلّل من جاذبيّتها. فقد أثبتت التّجربة أنّ التّفكير التّحليليّ يقلّص من الميل إلى الاعتقاد بنظريّات المؤامرة، وترتبط الجهود المبذولة لتحفيز التّفكير التحليليّ (مثل التّعليم) بانخفاض معتقدات المؤامرة[62]. فضلا عن أنّ تقديم حجج عقلانيّة يمكن أن يساعد الجمهور على إجراء تقييم

(62).VanProoijen, J.-W., Krouwel, A. P. M., &Pollet, T. (2015). Political extremism predicts belief in conspiracy theories. Social Psychological and Personality Science, 6 , 570–578.

صادق لمعقوليّة نظريّة المؤامرة، من عدمها. يمكن أن تبدو نظريّات مؤامرة كثيرة مقنعةً في البداية من خلال تقديم مجموعة من الحجج الّتي تبدو منطقيّة، وأحيانًا تستند إلى ادّعاءات علميّة. ومن الأمثلة على ذلك نظريّة «الفولاذ المصهور» في الحادي عشر من سبتمبر، الّتي تستند إلى فكرة (صحيحة علميًّا) مفادُها أنّ الفولاذ لا يذوب في درجات الحرارة النّاتجة عن حرق الكيروسين. وهكذا، فإن هذه النّظريّة ترى أنّه من «المستحيل علميًّا» أن تكون العناصر الّتي اندلعت بعد تحطّم الطّائرات هي سبب انهيار البرجين التّوأمين. ممّا يعني أنّ الأبراج قد هدمت لسبب مختلف بشكل منظم.

مثل هذه الحجج يمكن أن تجعل نظريّات المؤامرة جذّابة لجمهور عريض: بعد كلّ شيء، كيف يمكن أن نفسّر انهيار الأبراج إذا لم يكن من الممكن أن يكون الكيروسين هو السّبب؟ في محاولة للحدّ من نظريّات المؤامرة، من المهمّ إعلام الجمهور بما يقوله العلم بالفعل حول هذه القضايا. غالبًا ما تبدو نظريّات المؤامرة معقولةً في البداية، فقط لتصبح غير قابلة للتّصديق إذا أضاف المرء جزءًا مهمًّا واحدًا فقط من المعلومات الإضافيّة. إنّ نظريّة «الفولاذ المصهور» مرعبة، من الناحية العلميّة، لأنّها تقترح نصف الحقيقة: لا يذوب الفولاذ بالفعل في درجات الحرارة النّاتجة عن احتراق الكيروسين، لكنّ هذه النّظريّة تفشل في إضافة أنّ الفولاذ يجب ألّا يذوب حتّى ينهار البناء. يحتاج الفولاذ فقط إلى الضّعف، إلى نقطة معيّنة حتّى يحدث هذا - ويضعف الفولاذ بشكل كبير في درجات الحرارة النّاتجة عن احتراق الكيروسين، ممّا يجعل من المستحيل حمل وزن جميع الطوابق فوق المبنى.

لكن إلى جانب العقلانيّة، أظنّ أنّ التّدخّلات المصمّمة لتقليل نظريّات المؤامرة من المرجّح أن تكون فعّالة بشكل خاصّ عندما تستهدف السّبب الرّئيسيّ لمعتقدات المؤامرة: الخوف وعدم اليقين. إذا تمكّن المرء من تحويل التشاؤم الواسع الانتشار إلى تفاؤل، فإنّ نظريّات المؤامرة غير العقلانيّة ستنخفض بين الجمهور.

نظرًا إلى أنّ هذه المشاعر البغيضة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالشّعور بالخروج عن السّيطرة، أقترح أيضًا أنّ جعل النّاس يشعرون بالسّيطرة يقلّل من نظريّات المؤامرة. بعبارة أخرى، يحتاج النّاس إلى الشّعور بالتّمكين حتّى يصبحوا أقلّ شكًّا: ليشعروا بأنّهم قادرون على التّأثير على مصيرهم وأنّ لهم رأيًا في القرارات الّتي تؤثّر عليهم. في الواقع، وجدت إحدى الدّراسات أنّه من الضّروريّ جعل المشاركين يتذكّرون وقتًا في حياتهم شعروا خلاله أنّهم يتحكّمون تمامًا في نظريّات المؤامرة مقارنة بحالة خطّ الأساس المحايدة[63].

إنّ الفكرة القائلة بأنّ تمكين الأشخاص يقلّل من نظريّات المؤامرة لها آثارٌ على ما يمكن للقادة فعله لجعل أتباعهم أقلّ ريبة. تتمثّل إحدى الأفكار الأساسيّة من أدبيّات القيادة في أنّه يمكن للنّاس أن يحكموا بأساليب قيادة مختلفة، وتختلف هذه الأساليب من حيث مدى تمكينهم أتباعَهم من خلال إشراكهم في القرارات. في دراسة بين الموظّفين في مختلف المؤسّسات الّتي أجريتها مع عالم النّفس التّنظيميّ - Reinout de Vries، فحصنا السّؤال عن كيفيّة توقّع أنماط القيادة المختلفة لمعتقدات المؤامرة التنظيميّة (أي معتقدات الموظّفين حول المدراء الّذين يتآمرون سرًّا لمتابعة أهداف شرّيرة). لقد نظرنا بشكل خاصّ في أربعة أنماط قيادة مختلفة ومتكرّرة. اختلفت هذه الأساليب الأربعة فيما إذا كانت مدمّرة أو بنّاءة[64].

كانت أساليب القيادة المدمّرة الّتي حقّقنا فيها هي القيادة الاستبداديّة وقيادة عدم التّدخّل. القيادة الاستبداديّة تعني أن تكون قائدًا مستبدًّا يقسو على أتباعه ولا يقبل النّقد بسهولة. تعني قيادة «دعه يعمل» في الأساس الافتقار إلى القيادة، إذ لا يتدخّل هؤلاء القادة إلّا عند الضّرورة القصوى. كانت أساليب القيادة البنّاءة التي

---

(63) Van Prooijen, J.-W., & Van Dijk, E. (2014). When consequence size predicts belief in conspiracy theories: The moderating role of perspective taking. Journal of Experimental Social Psychology, 55 , 63–73.

(64).VanProoijen, J.-W., & Van Lange, P. A. M. (2016). Cheating, corruption, and concealment: The roots of dishonesty .Cambridge, UK: Cambridge UniversityPress.

بحثنا فيها هي القيادة الكاريزميّة والقيادة التّشاركيّة. يلهم القادة ذوو الكاريزما المتابعين لجعل أهداف المنظّمة أهدافهم الخاصّة وغرس الشعور بين الموظّفين بأنّ عملهم مهمّ. يؤدّي القادة المشاركون دورهم بإشراك أتباعهم في عمليّات صنع القرار من خلال طلب آرائهم حول القرارات الّتي يجب اتّخاذها والّتي تؤثّر عليهم جميعًا.

أشارت النّتائج إلى أنّ كلا الأسلوبين المدمّرين في القيادة توقّعا معتقدات مؤامرة أقوى بين الموظّفين، وذلك بسبب زيادة الشّعور بعدم الأمان بشأن وظائفهم. جعل القادة الاستبداديّون النّاس يشعرون بعدم الأمان، فهؤلاء القادة لا يبدو أنّهم مهتمّون برفاهية الأتباع ومصالحهم. وبالمثل، فإنّ قادة سياسة عدم التّدخّل جعلوا النّاس يشعرون بعدم الأمان، إذ يصعب على النّاس فهم مدى تقدير القائد لهم إذا لم يكن القائد موجودًا البتّة. إذا كان الهدف هو الحدّ من نظريّات المؤامرة، فإنّ كونك قائدًا مدمّرًا – من خلال الوسائل النّشطة أو السّلبيّة – ليس هو الحلّ. من بين أساليب القيادة الأكثر نجاعة، وجدنا أنّ القيادة الكاريزميّة لا علاقة لها بمعتقدات المؤامرة. قد تؤثّر القيادة الكاريزميّة على النّاس بطرق عديدةٍ، غالبًا بشكل إيجابيّ (على سبيل المثال، تزيد من دافعهم لبذل الجهد من أجل الجماعة)، لكنّها لا تؤثّر على احتمال اعتقادهم بنظريّات المؤامرة: من المرجّح أن يؤيّد النّاس نظريّات المؤامرة الّتي تنطوي على الكاريزما، أو القادة غير الكاريزماتيّين.

كان هناك أسلوب قيادة واحد تنبّأ بالفعل بانخفاض الإيمان بنظريّات المؤامرة، وكان هذا هو أسلوب القيادة التّشاركيّة. القادة الّذين يمنحون أتباعهم صوتًا عند الحاجة إلى اتّخاذ قرارات مهمّة ويأخذون مداخلات المتابعين وآراءهم على محمل الجدّ في مهامّهم الإداريّة، استنبطوا نظريّات مؤامرة أقلّ من القادة غير المشاركين. والسّبب هو أنّ هؤلاء القادة يمكّنون لأتباعهم: يشعر المتابعون بأنّهم يمكن أن يكونوا جزءًا من عمليّات صنع القرار المهمّة وأنّ آراءهم مهمّة. في الواقع، ليس

من الضّروريّ أن يجد النّاس دائمًا طريقهم إلى تجربة هذه التّأثيرات التّمكينيّة للقيادة التّشاركيّة. إذا أُشرِكَ النّاس في عمليّة صنع القرار، فسيكون لديهم أيضًا إحساس أفضل بمدى تعقيد القرار الّذي يتعيّن اتّخاذه، وتقدير وجود اختلافات في الرّأي حول الخطوات التّالية الّتي يجب أن تكون. يمكن للنّاس أن يقبلوا قرارًا غير مواتٍ بشكل جيّد شرطَ أن يعتقدوا أنّ إجراء اتّخاذ القرار السّابق كان عادلًا. لكي يشعر النّاس بالتّمكين، عليهم أوّلًا وقبل كلّ شيء أن يشعروا بأخذهم على محمل الجدّ وأن يشعروا بأنّهم عضو محترم في مجتمعهم. يمكن تحقيق ذلك من خلال القادة الّذين يبذلون جهودًا حقيقيّة للاستماع إليهم وأخذ مصالحهم بعين الاعتبار.

يتمثّل جوهر القيادة التّشاركيّة في استخدام المبادئ الأساسيّة للعدالة الإجرائيّة في صنع القرار، أي أن يخضع اتّخاذ القرارات لاستخدام الإجراءات الّتي يعتقد الأتباع في عدالتها. إنّ تأثيرات العدالة الإجرائيّة على كيفيّة استجابة النّاس لسلطات صنع القرار موثّقة جيّدًا، وعلى العموم، يجد هذا المجال من البحث أنّه إذا اعتبر النّاس الإجراءات عادلة، فإنّهم يقبلون بسهولة ما سينجرّ عنها من قرارات، حتّى إذا كان لديهم بعض المؤاخذات عليها. يختبر الأتباع جنسًا جديدا من المشاعر إزاء السّلطات، مفعما بالإيجابيّة، مميّزا بالاحترام المتبادل وبالثّقة البنّاءة. فالعدالة الإجرائيّة تعمل بشكل عامّ على تحسين جودة العلاقة بين القادة والأتباع، ويرجع ذلك إلى حدّ كبير إلى شعور النّاس بالتّمكين، النّاجم عن تحفيز السّلطات التي تستفتيهم في القرارات المهمّة، مصغية إلى آرائهم، مولية إيّاها كلّ العناية، ناظرة إليهم بصفتهم أعضاء فاعلين في المجتمع، لهم رؤاهم وخصوصيّاتهم وقدرتهم على الإضافة. نتيجة لذلك، قد تكون العدالة الإجرائية أداة قوية للحدّ من نظريّات المؤامرة.

إن تزويد النّاس بالتعبير عن آرائهم في عمليّات صنع القرار ليس سوى إحدى السّبل الممكنة لتحسين الإنصاف المتصوّر لإجراءات صنع القرار، ولكن هناك

أيضًا جوانب أخرى للعدالة الإجرائيّة التي أتوقّع أن تكون مفيدة في الحدّ من نظريّات المؤامرة. إلى جانب الصّوت، فإنّ معايير العدالة الإجرائيّة التي تبدو ذات صلة خاصّة بنظريّات المؤامرة هي الشّفافيّة والمساءلة. فالكثير من نظريّات المؤامرة ينبع من معتقدات حول ما تناقشه السّلطات سرًّا، والدّوافع الخفيّة لتأييد سياسات معيّنة. من المرجّح أن تؤدّي زيادة الشفافيّة والمساءلة إلى تقليل مثل هذه الأفكار المشبوهة من خلال تزويد الجمهور برؤى ثاقبة حول المعضلات الصّعبة الّتي تواجهها السّلطات في كثير من الأحيان والأسباب الّتي جعلت السّلطات تتبنّى مسارًا معيّنًا للعمل على الاحتمالات البديلة. وبهذا المعنى، تعمل الشّفافيّة والمساءلة أيضًا على تمكين الجمهور لأنّهما يمكّنان الناس من تقييم السّياسة بصدق، ومن نقد القادة ومحاسبتهم على أفعالهم بطريقة بنّاءة أكثر من نظريّات المؤامرة.

للحدّ من نظريّات المؤامرة، يمكن للمرء بناءً على ما تقدّم الجمع بين التّدخّلات الّتي تعزّز العقلانيّة والتّدخّلات الّتي تقلّل من عدم اليقين والخوف. أودّ على وجه التّحديد أن أدعو إلى مزيج من التّحليل الدّقيق لنظريّات المؤامرة الواسعة الانتشار من خلال الحجج العقلانيّة والتّقييم الكامل للأدلّة المتاحة، ومن تدخّلات العدالة الإجرائيّة الّتي تمكّن النّاس وتجعلهم جزءًا من عمليّات صنع القرار المهمّة. في حين أنّ هذه التّدخّلات قد تفشل في إقناع مجموعة صغيرة نسبيًّا من الأشخاص الّذين يستثمرون بقوّة في الاعتقاد بأنّ العالم محكوم بمؤامرات شرّيرة، فمن المرجّح أن يقنعوا أغلبيّة أكبر بكثير تكون عرضة للتّفسيرات التآمريّة وغير المؤيّدة للتأثيرات المجتمعيّة.

الخلاصة

ليست نظريّات المؤامرة حكرًا على عصرنا الحديث، فقد أنبأت عن حضورها في مفاصل متفرّقة من التّاريخ البشريّ. ولطالما كان النّاس ضحايا لمخاوفهم، ولما

يتربّص بهم من هواجس، ومن عدم يقين، تهيّبا من مخاطر محتملة، ولمجابهة هذه المشاعر المنبوذة، يزداد حذرهم، وتزداد معه يقظتهم إزاء ما هو محتمل من الأنشطة التّآمريّة لمجموعات أخرى، تتّسم بالقوّة، وقد تكون معادية. لا يمكن بأيّة حال أن نحسب تلك اليقظة مرضيّةً، وإنّما هي آليّة دفاع طبيعيّة تتضمّن عمليّات نفسيّة منتظمة. وعليه فإنّ نظريّات المؤامرة شائعة وستظلّ كذلك في المستقبل المنظور. ومع ذلك، فإنّ حقيقة شيوع بعض نظريّات المؤامرة لا يقرّ بصحّتها، ولا يقيم الحجّة على عقلانيّتها.

يواجه عالمنا المعاصر، أكثر من أيّ وقت مضى، تحدّيات كثيرة، ومعقّدة، على مختلف الأصعدة، تتطلّب حلولا جادّة، ومسؤولة، ولكنّ تلك التّحدّيات تمثّل في المقابل أهدافا متكرّرة لنظريّات المؤامرة، من قبيل الشعبويّة وتغيّر المناخ والصّراع بين الجماعات، والصّحّة العامّة والفقر والهجرة والبطالة والحوكمة العامّة... وآمل، بناءً على ما تقدّم من التّوصيف والتّحليل، أن تساهم الأفكار الواردة في متن هذا الكتاب حول سيكولوجية نظريّات المؤامرة، بشكل أو بآخر، في إفراز مجتمع بجنون أقلّ... بعبارةٍ أخرى، مجتمع بجنون عظمة أقلّ...



جان ويليم فان بروجين

سيكولوجيّة نظريّات المؤامرة

تُعتبرُ نظريّة المؤامرة من بينِ أهمِّ القضايا الرّائجة في عصرنا هذا، خصوصًا في ظلِّ الثّورة المعلوماتيّة التي كسرت جميع الحواجز وأخرجت المعلومة خارج أطرها الكلاسيكيّة، لتفقد بذلكَ مصداقيّتها وحقيقتها. في هذا الكتاب يحلّلُ «جان وليم فان بروجين» نظريّة المؤامرة من زاوية علم النّفس، فيقدّمُ نماذج كثيرة من نظريّات المؤامرة التي سادت في وعي جانبٍ كبير من المجتمع ويقوم بتحليلها من منظورٍ سيكولوجي، كما يتطرّقُ إلى دورها في انتشارِ ثقافتي التّدجين والاستلاب وأثرها على الخطابِ السّياسي وبروز التّيارات الشعبويّة في العالم التي غزت الفضاء السّياسي بفضلِ نظريّات مؤامراتيّة مجانبة للواقع وللحقيقة. كتابٌ يحتاج إليه القارئ اليوم ليعيد النّظر في عديد المفاهيم والأدوات التي اعتدنا استغلالها في تحليل الواقع وتفكيكه.

المترجم


ISBN: 978-603-91594-3-8

WWW.PAGE-7.COM

